تمهيد

في معرفة النفس والعالَم
والإسلام والإيمان

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: النفس والعالَم

الفصل الثاني: العالَم نوعان: مادي مشهود، وغيبي

الفصل الثالث: أهمية العقيدة وطرق ثبوتها

الفصل الرابع: الإسلام والإيمان

obeikandl.com

الفصل الأول

معرفة النّفس والعَالم

قبل البداية في بيان «السبيل إلى الله تعالى» لا بدّ من أن نعرفَ أنفسنا أولاً معرفة صحيحة؛ لأنَّ من عرف نفسَه فقد عرف ربَّه، ثم نعرفَ الله تعالى ثانياً معرفة يقينية، ونؤمنَ به ونعتقد بوجوده ونعرف صفاته الكمالية وأسمائه الحُسْنَى، ثم نعرف أخيراً كيف السبيل للوصول إلى طاعة الله وعبادته ومرضاته بالشكل الذي شرعه لنا.

ولبيان ذلك هنالك بعض المقدّمات والمسلَّمات التي يتوقف على فهمها وإدراكها والتسليم بها فعلاً كثير من المعتقدات.

ومن هذه المُقدِّمات: كشف النقاب بشكل منطقي واضح عن مدى إمكانات الملكات النفسية للإنسان، وعن مدى قدرة الملكات على الصلة بخفايا الكون وكشف ما فيه.

كيف يكتسب الإنسان معارفه؟

عندما يولد الإنسان، يولد جاهلاً لا يعرف شيئاً من الكون حوله، ويبدأ بالتعرّف على محيطه وتكوين معارفه شيئاً فشيئاً بواسطة ما زوَّدَه الله به من وسائل للمعرفة وأجهزة مُعقّدة وغاية في الدقَّة

لاكتساب العلوم، منها: منافذ يُطل منها على العالم الخارجي ألا وهي (الحواس الخمس): حاسة البصر، وحاسة السمع، وحاسة الشم، وحاسة الذوق، وحاسة اللمس. كما زوّده الله تعالى بعقل يستنتج ويُحَلِّل، وجعله مركز التفكير ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 5]. كما زوّده بالمشاعر والانفعالات: كالرضى والغضب، والحب والكراهية، وحاسة الألم، إلخ...

فبمقدار ما تنقل الحواس من حقائق للقوة الإدراكية تستطيع أن تتخيل وتدرك، وتحلل وتركّب، وتستنتج القواعد العامة، وتقيس الأشباه والنظائر على بعضها، ولا تستطيع شيئاً غير ذلك ولا أكثر من ذلك.

فالعميان مثلاً الذين يولدون وهم فاقدو الأبصار، مهما أوتوا من الذكاء لا يستطيعون أن يتصوَّروا في مخيلتهم شيئاً عن الألوان مهما حاولنا أن نقرِّب لهم ذلك بالتشبيه والتمثيل، حيث لم يسبق لهم أن اتصلوا بإدراك حقيقة أي لون من الألوان عن طريق البصر.

فلو قلت لهم: أبيض، أحمر، لم يستطيعوا أن يتخيلوا صورة لهذه الألوان أبداً، ما لم تنفتح نافذة أبصارهم على الوجود. وكذلك الذين يولدون صماً لا يستطيعون أن يتخيلوا عن الأصوات شيئاً مهما أوتوا من الذكاء حتى تفتح نافذة أسماعهم على الوجود.

ومثل ذلك الطفل الصغير قبل البلوغ مهما أوتي من نبوغ لا يستطيع أن يتصور شيئاً عن الغريزة الجنسية؛ ولا يزال في تكهنات غير صادقة عنها حتى تدب فيه الغريزة بشكلها المركّز، وكل إنسان ـ رجلاً كان أو امرأة ـ لا بد وقد مرَّ بهذه المرحلة بالذات، فهو يسلّم

بذلك دونما جدل. وهكذا سائر العواطف والانفعالات لا نستطيع أن ندرك حقيقتها ما لم نمرَّ بتجربة لها.

ونحن جميعاً لا نستطيع أن نتخيل طعماً من الطعوم لم يسبق لنا أن تذوقناه، حتى نأتي به ونتذوقه فعلاً، وهكذا بقية الحواس في الإنسان.

ونستخلص مما سبق: أن النفس إنما تدرك الأشياء المنتشرة في هذا الكون الكبير عن طريق منافذها التي تطلُّ منها على العالم، ولولاها لم تدرك من الوجود الخارجي عنها شيئاً، ولبقيت في جهل كامل. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة المسلَّم بها في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]. وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنفال): ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أجهزة الحس عند الإنسان محدودة:

ولو مُنِحَ الإنسان بعض حواس أخرى ـ غير التي هي داخلة في تركيبه ـ لاكتشف من حوله أشياء كثيرة هي مُغَيَّبة الآن عنه؛ لأنه لا يُحس بها، إذ لا توجد لديه الحاسة الخاصة التي يتمكن بواسطتها أن يكتشفها ويُدركها.

أليس في هذه الأجهزة التي تدل على الذبذبات الصوتية، أو

الصُوَر المرئية، وعلى درجات الحرارة، وعلى درجات الضغط الجوية، إلى غير ذلك من أجهزة مختلفة، ما يشير إلى نقص كبير في حواسنا؟! وقد كان من الممكن عقلاً أن نؤتى الحواسَّ التي ندركُ بها ما تتحسس به هذه الأجهزة وتدل عليه.

كيف بنا لو أوتينا راداراً يلتقط جميع الأصوات في الهواء، أو الصور، أو قوة الإحساس بالمعادن من وراء الحجب؟ فإذا مررنا بمعدن الحديد أحسسنا به دون أن نراه كما يحس به المغناطيس، أو بمعدن الذهب أو الفضة أو الماس أو نحوها، أحسسنا بها وهي في داخل جبالها، وفي طبقاتها من الأرض. ألسنا نكون أوسع في حواسنا مما نحن عليه الآن لو كان الأمر كذلك؟! أليس في المخلوقات الأخرى من الإحساسات ما ليس فينا؟

فما أكثر نقصنا! على أننا أكمل من غيرنا في الخلق!!

فحواسُّنا التي هي السبيل الوحيد لنا للتعرف على الوجود من حولنا؛ هي منافذ قصيرة المدى، محدودة كمّاً وكيفاً.

وقد اكتشف العلم الحديث أن الفضاء مملوء بالصُوَر التي لا نستطيع أن نشاهدها بأبصارنا، لفقد الانسجام والتوافق بين وضعها ووضع أبصارنا؛ كما أنه مملوء بالأصوات التي هي فوق مستوى سمعنا أو دون مستواه، ونحن لا نسمع من ذلك شيئاً. كما استطاع العلم الحديث أن يكتشف الأجهزة الخاصة التي باستطاعتها التقاط الأصوات والصور من الجو؛ لتنقلها إلينا بعد أن تحوِّلها إلى صور وأصوات تتناسب مع مستوى ووضع أسماعنا وأبصارنا. ولكن الله ﷻ قدّر أن تكون حواس الإنسان ضمن الحدود التي خلقه عليها رحمةً

به، ولنتصوَّر مثلاً إنساناً مُتْعَباً يريدُ النوم، والهدوءَ التامّ لراحته، وقد زوَّده الله بأجهزة لاقطة لجميع الأصوات والذبذبات في الهواء! فهو يَسْمَعُ جميعَ الأصوات التي في الجوّ، هل يستطيع النوم؟ إن ذلك سيكون وبالاً عليه، بدون شك؛ لأنه لن يعرف معنى الراحة طول عمره!!! فسبحان من خلق فسوَّى، وقدَّر فهدى.

ليس للإنسان أن ينكر ما لا يحس به

فإذا جزمنا بأن مكاناً ما مثلاً لا يوجد فيه أي صوت ـ لا بشكل ظاهر ولا بشكل خفي ـ نعجز عن إدراكه؛ ثم جيء إلينا بالأجهزة القادرة على التقاط الصوت الخفي من نفس ذلك المكان، ثم أديرت بحيث تلتقط الصوت وتنقله لنا، لكان ذلك تكذيباً لنا فيما ادعينا سابقاً، وبرهان الحس الجديد المشاهد فيها أعظم شاهد. ولا يخفى ما يتضمنه الكشف الجديد من الإعلان عن جهلنا في جزمنا السابق؛ وفي إلقائنا الأقوال التي نؤكدها ونجزم بها جزافاً، دون رَوِيةٍ أو عقلٍ نافذ للحقيقة، بصير الكوامن.

وحيث إن حواسنا ـ كما أوضحنا ـ محدودة كمّاً وكيفاً، فلا يصح لنا ـ عقلاً ولا واقعاً ـ أن ننكر أشياء من حقائق الكون ـ مهما كان نوعها ـ إنكاراً باتاً قطعياً لمجرد أننا لم نرها ولم نسمع صوتها ولم نتصل بها بأية حاسة من حواسنا؛ إلا أن نقيم دليلاً عقلياً وبرهاناً واضحاً يسلِّم به المنطق السليم.

أما الادعاء بأنها غير موجودة لأننا لم نحس بها، فذلك أمر ترفضه العقول رفضاً باتاً، كيف لا ونحن نعلم حقاً ـ من ألوف

التجارب اليومية ـ أن حواسنا محدودة كمّاً وكيفاً!! فمن حيث الكمُّ، متى تجاوز البعد المسافة التي تسمح لنا بالإحساس ظهر عجز حواسنا عن إدراك الأشياء.

فحاسة البصر مثلاً التي هي أبعد حواسنا مدى، كلما تباعد عنا الشيء المرئي صغر حجمه في أبصارنا، حتى تنعدم الرؤية تماماً بسبب البعد.

وكذلك حاسة السمع. أما حاسة اللمس فشروطها أشد؛ لأنها تحتاج إلى الالتصاق المباشر.

ومن حيث الكيف لا بد من مرافقة شروط خاصة لكل حاسة فينا، حتى نستطيع بوساطتها إدراك الأشياء المعروضة على حِسّنا.

فحاسة البصر فينا مثلاً، تحتاج في رؤية الأشياء الى الضوء، ومتى انعدم الضوء وحل الظلام الدامس انعدمت الرؤية تماماً. وكذلك متى صغرت الأشياء المرئية الى المراتب الدنيا في الصغر، لم نستطع رؤيتها إلا بوساطة المجاهر المكبرة إلى عشرات المرات أو ألوفها أو ملايينها.

المعرفة فالاستنتاج طريق آخر للمعرفة

وهنالك أشياء كثيرة جداً في واقعنا نؤمن بها إيماناً قوياً دون أن نتصل بها عن طريق الحواس اتصالاً مباشراً؛ وإنما نؤمن بها عن طريق الاستنتاج.

مثلاً: تسمع وأنت في داخل غرفتك طرقاً على الباب، فتستنتج

بلا تردد أن طارقاً ما يطرق الباب عليك دون أن تراه أو تسمع صوته؛ ذلك لأنك تعلم يقيناً أن الباب لا يدق نفسه بنفسه، فتقول: لا بد أن يكون هنالك طارق طرقه.

ولا بد أن ألفت النظر هنا إلى خرافة يتحامق بها بعض صغار العقول من المُلْحِدين فيقولون: (إننا لا نسلِّم بوجود أشياء لا نحسّ بها). إنهم يتصورون أن حواسهم تستطيع أن تكشف كل شيء من حولهم! والعلم في كل يوم يكتشف أشياء جديدة هي من حولنا، بل هي داخلة في تركيبنا، والناس لم يحسوا منها طوال الزمان الغابر شيئاً. وكم يُسْهمون بأنفسهم بسبب إنكارهم لها ـ لو أنكروها ـ في الإعلان عن ضآلة أفهامهم، ومنتهى جهلهم، إنهم يبرهنون على أنفسهم في هذا بأنهم جُهَلاءُ، صِغارُ العُقول، مُجازِفون في إنكار حقائق الكون القائمة دلائلها فيه!!

وإليكم قصة طريفة في هذا الباب:

لقد ردَّ طفلٌ صغيرٌ بإشراق فِطْرَتِهِ على بعض هؤلاء المُتحامِقين من المَلَاحِدَةِ رَدّاً لاذِعاً فيه التهكُّم والإقناع معاً، قال المُتَحَامِقُ: (نحن لا نؤمن بوجود أي شيء حتى نراه، ولا نُسَلِّم به حتى نُشاهِدَه). وجعل يضرب الأمثلة الواهِية على ذلك، إلى أن توصل إلى موضوع وجود الله فقال: (نحن لم نُشاهد الخالقَ فهو إذن غير مَوْجُودٌ). فقام الطفلُ الصغيرُ المنصتُ في زاوية مجلس هذا المُتحامق المُلْحِد فقال له: (يا أستاذ نحن كلّنا لم نر عَقْلَك الذي تفكّر به، فأنت إذن لا عقل لك)؛ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

دَوْر الخيال في المعرفة وحدوده:

ولدينا في مُركب قدرة الإدراك أيضاً زاوية خاصة قادرة على تخيّل أشياء غير موجودة أمامنا وفق هذا التركيب التخيلي، لكننا مهما حاولنا أن نتخيّل صورةً ما من الصُوَر، ومهما سَبَحْنا فيها مع الأوهام الخرافية، فإننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نضم أجزاء موجودة فعلاً في الكون بعضها إلى بعض، وهذه الأجزاء قد أدركناها فعلاً عن طريق حواسنا، ولكننا بهذا التخيل ضممنا هذه الأجزاء الموجودة بشكل متباعد فتخيلناها على شكل وحدة متماسكة في صورة.

فأنبغ الشعراء، وأبرع الأدباء، وأحذق القصاصين الخرافيين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً ما لم يدركوا بحواسهم أجزاءه متفرقة في الكون من حولهم.

إن خيالنا محصورٌ حَصْراً تاماً فيما تدركه حواسُنا، فنحن مهما أوتينا من قدرة خيالية فلا نستطيع أن نتخيل حقيقةً ما من الحقائق، ما لم ندرك نموذجاً عنها بحواسنا.

لذلك يستحيل علينا أن نتخيَّل حقيقة الدار الآخرة وما فيها في صورة؛ لأننا لم نتصل بأي شيء مما فيها عن طريق أيّة حاسة من حواسنا. وكذلك يعسر علينا أن نتخيل حقيقة تكوين الملائكة والجن وأمثال ذلك من مخلوقات بعيدة عن مجال حسنا.

وحقيقةُ الذاتِ الإلهية أبلغُ من ذلك، فكيف نستطيع أن نتخيل حقيقةً ما لذات الخالق العظيم الذي لم نتصل بذاته العليَّة بحاسة من حواسنا؟! ولذلك قال العقلاء قديماً: (كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك).

دور العقل في المعرفة وحدوده:

وكذلك العقل فهو مقيَّدٌ بعالم الحس ولا عمل له في الحكم على عالم الغيب (الميتافيزيك)؛ ذلك لأن القوة العاقلة فينا التي تجمع بين المصورة والذاكرة، والمخيّلة والذكاء، تقوم بعملها الجبّار في التحليل والتركيب، والجمع والتفريق، واستنتاج القواعد العامة والكليات، وقياس الأشباه والنظائر على بعضها، بعد أن تنقل الحواس المختلفة إلى المصورة أشرطة مشاهداتها في الكون: شريطَ المرئيات، وشريطَ المسموعات، وشريط المذوقات، وشريط المشمومات، وشريط الملموسات، وشريط الوجدانيات الداخلة في الإنسان، ثم تُكَوّن أحكامَها مُقيّدةً بحدود هذه الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس.

وهذه القوة العاقلة فينا لا تستطيع أبداً أن تُصدر أحكامها على مُغيّبات لم يعرض أمامها شريط مسجل عنها؛ لأن كل حكم تحكم به إنما تقوله متأثرة بواقع أشرطة الحواس التي جاءتها. وقد يختلف عالم الغيب عن عالم الحس كل الاختلاف فلا يمكن الحكم عليهما بالتشابه، والقاعدة الثابتة عند العلماء: (أنّ الحُكْمَ على الشيء فَرْعٌ عَنْ تَصَوُّرِه).

فعالَمُ الغيب لا تستطيع عقولُنا أن تحكم على شيء فيه بإثباتٍ أو نَفْيٍ اسْتِقلالاً ذاتياً، إلا أن يأتيها خَبَرٌ يشهد العَقْلُ بإمكانِ وُجودِه وبِصِدْقِ ناقله، وعند ذلك تُسَلِّمُ بمضمونه تسليماً تاماً دون مناقشة أو اعتراض.

وحيث إن عالم الحس فينا محدود فالعقل فينا محدود أيضاً من وجهين:

الوجه الأول: محدود بين شيئين هما: الزمان والمكان. لذلك يسأل العقل دائماً: متى؟ وأين؟

ذلك لأن جميع الأشياء التي اتصل بها حِسّنا لا بُدَّ وأن توجد في مكان، وأن يجري عليها زمان، ولا يستطيع العقل أن يتصور أو يتخيل موجودات لا أمكنة لها، أو أشياء لا يجري عليها زمان. علماً بأن من الأصول المقررة عند جميع العقلاء الواعين المنصفين، أن ذات الله تعالى لا يجري عليها زمان، وليست بحاجة إلى مكان؛ لأن الله هو خالق الزمان والمكان.

الوجه الثاني: محدود حينما يُعلن عجزه عن التسليم بواحد من احتمالين في الكون لا ثالث لهما. فمثلاً: يتساءل كل إنسان عاقل بينه وبين نفسه: هل هذا الكون متناهي الحدود، أو غير متناهي الحدود؟ وهنا دعنا نَجْرِ وراء التصور؛ فأول ما يصادفنا إذا انطلقنا من الغلاف الأرضي فراغ، ثم بعده بؤرة لمجموعة من النجوم، وبعد ذلك بؤرة لمجموعة أخرى من النجوم، وبعد ذلك الانطلاق من المجرة التي تعتبر أرضنا هباءة فيها، وبعد ذلك مجموعات أخرى من المجرات.

ولننتقل إلى التسمية بالسماء الأولى، ثم الثانية، إلى السابعة، إلى العرش، إلى الكرسي، ولندع للفكر أن يسبح ما شاء له الوهم أن يسبح. ثم بعد ذلك لا بد أن يصل العقل أخيراً إلى نقطة يظل فيها حيران عاجزاً عن التفكير، لا يستطيع أن يقتنع باللانهاية، ولا يستطيع أن يسلِّم بالنهاية. فإذا قال لنفسه انتهى الكون، قال له وهمه: وماذا بعد النهاية؟ وإذا قال لنفسه: الكون لا نهاية له، قال في نفسه: كيف يكون شيءٌ لا نهاية له؟!

ثم هو مضطر ـ عقلاً ـ أن يتردد بين هذين الاحتمالين، ولا ثالث لهما، وهو لا يسلّم بواحد منهما، وما ذلك إلّا لأن العقل محدود.

فإذا كان العقل عاجزاً عن فهم أشياء في الكون من حوله، وعاجزاً عن الإحاطة بصورتها الحقيقية، فهو عن إدراك صورة لحقيقة الأمور الغيبية التي هي وراء الطبيعة أضعف وأعجز.

وإذا كان العقل محدوداً كما رأينا، فكيف يستطيع أن يحيط بالله سبحانه، وهو ﷻ غير محدود؟!! قال الإمام الشافعي ﷺ في بيان أن العقل محدود: (إن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً ينتهي إليه). وقال الإمام الغزالي عليه رحمة الله: ولا تستبعد أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور قد يظهر فيه ما لا يظهر في العقل.

وبما سبق تتلخص لدينا الحقائق التالية:

1 ـ إن حواسنا التي هي طرق العلم لدينا محدودة لا تتناول كل شيء موجود.

2 ـ إن قدرة التخيل فينا محدودة في حدود ما يردنا عن طريق الحواس.

3 ـ إن عقولنا محدودة لا تستطيع أن تدرك جميع الحقائق الكائنة إدراكاً واضحاً وإن اضطرت إلى التسليم بها عقلاً.

وللأستاذ علي الطنطاوي كلام جيد حول هذه الحقائق في مقال: «بحث في الإيمان»: بكتابه «فِكَر ومباحث».

الفصل الثاني

تقسيم العالم إلى غَيبيّ ومَشهُود

إنّ كل الأشياء التي اتَّصَلَتْ بها حواسُنا هي في عُرفِنا أشياء مادية؛ لأننا شهدناها شهوداً حسياً، ولا يَشُكُّ بوجودها إلا فاقدُ الحِسّ، فهذا الجزء من العالم مشهود بالنسبة لنا.

ولكن العالم مشحون بالأشياء الكثيرة العجيبة التي لم نتصل بها عن طريق حواسّنا، وهذه الأشياء موجودة حقاً، ونؤمن بوجودها، وإن كانت غائبة عن شهودنا، ونسمي هذه الأشياء بعُرفنا أموراً غيبيّة، أي: غائبة عن عالم الحِسّ فينا. وقد تكون بواقع حالها أشياء مادية من نوع آخر، ويمكن شهودها من قبلنا لو تهيأت لنا شروط مشاهدتها والإحساس بها، أو لو وجدت لدينا الحاسة المناسبة التي نتمكن بوساطتها من كشف صورها والإحساس بذواتها.

والإجابة قريبة منا جداً حينما نتساءل عن مثال لبعض هذه الأشياء من العالم الغيبي (الميتافيزيك). هذه أرواحنا السارية في أجسامنا، لا نسمعها ولا نراها ولا نلمسها ولا نشمها ولا نتذوقها، ومع ذلك فهي موجودة فينا حقاً، نؤمن بها ونحرص عليها كل الحرص، بل بها نحس، وبها نألم، وبها نسر، وفيها بقاؤنا.

ونحن وإن لم نُحسَّ بأرواحنا إحساساً ظاهراً، فقد آمنا بها استدلالاً من آثارها فينا، بل علمنا بها أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل. وهناك قوى كثيرة منبثَّة في عالمنا إنما ندركها من آثارها.

فمثلاً: قطعتان من حديد متشابهتان تماماً وزناً وشكلاً ولوناً ولمساً، بحيث لا نستطيع أن ندرك بحواسنا أي فرق بينهما؛ أمّا إحداهما فمشحونة بقوة مغناطيسية، وأما الأخرى فغير مشحونة بمثل هذه القوة. ثم إذا وجَّهنا حواسّنا بدقة إلى هاتين القطعتين، فإننا لا نستطيع أن ندرك الشحنة المغناطيسية الموجودة في إحداهما عن طريق أي منفذ من منافذ الحس فينا. لكننا نجد أن المشحونة بالمغناطيس تجذب الحديد إليها بقوة، والأخرى عديمة من قوة الجذب، فندرك عن طريق الاستدلال العقلي البدهي وجود هذه القوة الزائدة في الحديدة المشحونة بالمغناطيس.

ثم إن هذه الروح التي بين جنبينا، والتي يعتبر علمنا بها من أولى خطوات علمنا بعالم الغيب، بل هي أدنى مراحل العالم الغيبي بالنسبة لنا، باعتبار اشتمال أجسامنا عليها، ومع ذلك لا تستطيع عقولنا أن تدركها على حقيقتها، أو تعرف صورتها وماهيتها.

ذلك أن الاستدلال العقلي أو الشعور الفطري قد يشير إلى وجود الشيء الغائب عن الحس فيعلم الإنسان بوجوده بداهة؛ وقد يدرك بعض صفات له بالبداهة أيضاً، ولكنه لا يستطيع أن يتكهَّن كيف تكون حقيقته، فهناك ملايين الاحتمالات الممكنة في العقل، فكيف يستطيع أن يخصص واحداً منها دون مرجِّح؟

بل لا يصح عقلاً، قياس عالم الغيب على العالم المادي المشهود، لاحتمال تغايرهما في كل شيء، في الماهيات، وفي الصفات الخاصة، وفي الأعراض.

ونحن لم نتصل بعالم الغيب عن طريق أية حاسة من حواسنا، بل أخبرنا عنه رُسُلُ اللَّهِ وأنبيائه ثم إننا كما أدركنا بالبداهة وبالاستدلال وجود أرواحنا أو سر الحياة فينا؛ فقد أدركنا بداهة وعن طريق الاستدلال من الآثار وجود الله خالق الكون العظيم. وكما أننا لا نستطيع أن نتخيل صورةً ما لحقيقة أرواحنا ـ وهي أدنى مراحل عالم الغيب بالنسبة لنا، بل هي داخلة في تركيبنا، وجسمُنا قفص لها ـ فكيف نستطيع أن نتخيل حقيقة ذات الخالق العظيم؟! بل كيف يصح لنا عقلاً أن نبحث في كنهها؟! وقد علمنا بداهةً أن الله بكل شيء محيط، ونحن لم نحط بشيء منه، عدا إدراك وجوده وبعض صفاته العظمى!!

الوحي: هو الطريق الوحيد لمعرفة عالم الغيب:

ومن خلال ما سبق ـ وبعد تسليمنا بأن عالم الغيب لا تستطيع عقولنا وهي مستقلة أن تدرك شيئاً من الأشياء الداخلة فيه، ندرك حقاً أن عقولنا مفتقرة في إدراك الأشياء الداخلة في عالم الغيب إلى معلومات خارجة عنها، نظراً لما علمنا من أن عقولنا بشكل مستقل لا تستطيع أن تتصور، أو تتخيل، أو تحلل وتركب إلا في حدود الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس. وعالمُ الغيب لم يتصل بنا شيء منه عن طريق الحس الذي يشعر به كل الناس، فلا تستقل عقولنا بإدراك شيء منه.

وهذه المعلومات الخارجة عن مجال تصوّرات العقل لو تُرِكَ لنفسه؛ لا يتأتّى العلم بها إلا عن طريق من هو داخل في عالم الغيب أو متصل به.

ومن ثم ينتقل بحثنا إلى التأكد من صِدْقِ خَبَرِ الذي يَنْقُلُ لنا عن عالم الغيب بعد أن اتصل به. وبعد البحث عَلِمْنا أن الأنبياءَ والرسل عليهم الصلاة والسلام صادقون بلا مِرْيَةٍ في جميع ما ينقلونه إلينا. وعلمنا أنهم ـ بصفاء أرواحهم، وطهارة نفوسهم، واختيار الله لهم رُسُلاً للبشر ـ اتّصلوا بالوحي من عالَمِ الغَيْب. فالوَحْيُ يُبلّغهم بعضَ الحقائق المغيَّبة عنا بشكل يقيني واضح، وهم يبلغوننا ما نقلوه عن الوحي بشكل يقيني واضح أيضاً. وما علينا ـ بعد أن عَلِمْنَا صِدْقَهم وتأييدَهم من قِبَلِ الخالق العظيم بالمعجزات وخوارق العادات ـ إلا أن نؤمن بما أخبروا به، ونسلّم تسليماً، دون مناقشة أو اعتراض.

ثم بعد أن نؤمن ـ جازمين ومسلِّمين بما جاءنا عن طريق الوحي الصادق ـ يجب علينا عقلاً أن نقف عند حدود النص الذي نقله الرسول لنا عن الوحي، دون أن نزيد عليه شيئاً من التخيلات أو التصورات، ودون أن نتلاعب فيه بتأويلات تعَسُّفِيّة، إلا أن ينكشف لنا شيء من الغيب بطريق من الطرق المنطقية السليمة المقبولة عقلاً، وذلك بالكشوف العلمية الثابتة بيقين، التي يتطور إليها العلم بسبب استخدام الطاقات الكونية الكامنة. فعندئذ يصح لنا أن نقرر ما انكشف لنا منه وأن نثبته. أما من دون ذلك فلا؛ لأن كل زيادة أو تخيل، أو تأويل تعسُّفي، إنما هو تَحَكُّم في الأمور الغيبية بالباطل،

حيث لا مستند لذلك من إدراك حسي، أو استنتاج عقلي، أو نص موحى به.

ومما سبق نستخلص ما يلي:

أ ـ أن عقولنا ـ بحسب حالتها الراهنة التي فُطرت عليها ـ مفتقرة في إدراك عالم الغيب إلى الوحي.

ب ـ أنه يجب علينا الوقوف في المغيبات عند النصّ المُوحَى به.

الأمور التي كانت من المغيبات فأصبحت من الأمور المادية المشهودة:

وأما الأمور التي كانت غيباً عنا في الكون ثم استطعنا الوصول إلى معرفتها عن طريق الكشوف العلمية اليقينية، أو البحوث النظرية المتبع فيها المنهج العلمي السليم، بالنظر لما تطوّر إليه العلم المعاصر، من إمكان استخدام الطاقات الكونية الكامنة، فإنها أمور خرجت عن كونها من الغيوب إلى كونها من الأمور الداخلة في العالم المادي المشهود.

لو استطاع الإنسان بالبحث العلمي واستخدام الطاقات الكونية الكبرى أن يصل إلى أي كوكب سماوي؛ لأصبح أمرُ هذا الكوكب وما فيه من جملة الأمور المادية المشاهدة لنا، لا من الأمور الغيبية البعيدة عن مجال إدراكنا الحسي.

ومثل ذلك التوصّل إلى معرفة الأسباب الكونية التي تُحدِّد مثلاً نزول الأمطار، أو تكشف عن حالة الأجِنَّة في بطون أمهاتها بالمناظير

أو الأشعة أو أجهزة التصوير أو غيرها. فإن ذلك يخرجها عن كونها غيوباً يعتبر الحديث عنها من قبيل الرجم بالغيب، إلى كونها أموراً مادية مشهودةً يصح الحديث عنها كغيرها من الماديات المعروضة على مجال إدراكنا الحسي؛ وذلك بالنظر للأسباب والوسائل التي استخدمت للاطلاع على حقائقها.

1 . تقسيم العالم في القرآن:

ولقد قسم القرآنُ الكريم العالَم بالنسبة للمخلوقات إلى قسمين: عالم الغيب، وعالم الشهادة، على نفس التقسيم الذي أوضحناه في الاستدلال العلمي. وقد جاءت النصوص القرآنية تشير إلى هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾. ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: كل أمر غائب عن مجال إدراكنا الحسي حسب العادة. و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: كل أمر نستطيع أن نتوصل إلى شهوده بالوسائل الحسية فينا حسب العادة.

ونلاحظ في النصوص القرآنية أن الله تعالى يقدم ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ على ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، والحكمة في ذلك أن الأمور المُغيّبة عنا لا تَتناهَى سِعَةً

ومَدًى، أما الأمور التي يمكن لنا أن نتوصل إلى شهودها ومعرفتها فهي أمور يسيرة قليلة. قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

2 . قسم من الغيب استأثر الله بعلمه:

وهناك قسم من الأمور الغيبية التي لا تستطيع حواس المخلوقات ولا مداركهم إدراكها؛ قد تفرَّد الله بعلمها، واستأثر بها لنفسه، فلم يُطْلِع عليها أحداً من خلقه في الأرض ولا في السمٰوات. وإلى هذا القسم أشار القرآن بقوله تعالى في سورة النمل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

obeikandl.com

الفصل الثالث

أهمية العقيدة وثبوتها

يتسم سلوك الحيوان بأنه مظهر من مظاهر دوافعه وغرائزه المنضبطة فطرياً بحدود حاجاته ومصالح جسده؛ فإذا أُشبعت حاجاتُه كفَّ وعفَّ، وقلَّما يتجاوز الحيوان حدود ما ينفعه إلى ما يضره، وذلك بكوابح فطريّة من غريزته.

أما الإنسان: فقد جعلت غرائزه ودوافعه وأهواؤه وشهواته رعيَّةً تحت سلطة إرادته الحرة، ومنح بالإضافة إلى إرادته عقلاً، يمكن أن يدرك فيه خيره وشره، وما ينفعه وما يضره، ليكون الموجّه لإرادته والمحرك لعواطفه. فإذا استرشدت إرادته بعقله وكان إدراكه للأمور صحيحاً سليماً، استقام سلوكه بمقدار سلامة وصحة إدراكه للأمور. وإذا تخاذلت إرادته فخضعت لجمهور أهوائه وغرائزه وشهواته ودوافعه ومطالب نفسه، كان كالأنعام بل كان أضل سبيلاً؛ لأن هذه العناصر في نفسه لا كوابح لها من أصل فطرتها، بعد أن منح الإنسان البديل عن هذه الكوابح من عقله وسلطان إرادته. وحين تصبح هذه العناصر هي الحاكمة على إرادة الإنسان، وهي صاحبة السلطان، تأخذ به إلى إفراط يضره ويهلكه أو تفريط يضره ويهلكه.

وحين نلاحظ أنواع سلوكنا العادي في الحياة، نجد أن إرادتنا

تتصرف بتوجيه من مفاهيمنا الثابتة في نفوسنا؛ وهذه المفاهيم الثابتة تمثل فينا مجموعة عقائدنا في الحياة.

ما الذي يجعلنا لا نضع أيدينا في النار؟ هذا سؤال نجيب عليه بأن لدينا مفاهيم ثابتة عن النار، وهذه المفاهيم توجه إرادتنا إلى أنواع خاصة من السلوك تجاه النار. إننا نعتقد أن النار تحرق، ونعتقد أن الحريق إذا مسَّ أجسادنا آلمنا وأخسرنا من أجسامنا ما نحن بحاجة ماسة إليه، وكل ذلك مكروه لنا. لذلك فإننا نوجه إرادتنا للكفّ عن كل تصرف نكره نتائجه وعواقبه. ما الذي يجعلنا لا نشرب كأساً لذيذة نشتهيها إذا سقط فيها سم قاتل؟ ونجيب على هذا السؤال أيضاً بمثل إجابتنا على السؤال السابق.

من هذا ندرك أهمية مفاهيمنا الثابتة (وهي مجموعة عقائدنا) في توجيه إرادتنا إلى أنواع من السلوك نتصور أنها تجلب لنا مصلحةً أو نفعاً أو لذة، وهذه أمور نحبها؛ أو نتصور أنها تدفع عنا مفسدة، أو مضرة، أو ألماً، وهذه أمور نكرهها.

والمفاهيم متى غدت ثابتة راسخة في نفوسنا، واطمأنت قلوبنا إليها، وأصبحت عواطفنا تتأثر بها، كانت عقائد راسخة لدينا. وهذا المستوى من رسوخ المفاهيم مع طمأنينة القلب إليها وتأثر العواطف بها، هو ما يطلق عليه لفظ (الإيمان) ومشتقات هذا اللفظ.

وهذا الإيمان هو الركن الأساسي الذي بدأ الإسلام به في تكوين شخصية المسلم؛ لأنه هو الجذر الأول في بناء شخصيته، وهو العنصر الأساسي المحرك لعواطفه والموجه لإرادته. ومتى صحت عناصر الإيمان في الإنسان استقامت الأساسيَّات الكبرى

لديه، وكان أطوع للاستقامة على طريق الحق والخير والرشاد، وأقدر على التحكم بأنواع سلوكه، وضبطها فيما يدفع عنه الضر والألم والمفسدة، العاجل من كل ذلك والآجل، وفيما يجلب له النفع واللذة والمصلحة العاجل من كلّ ذلك والآ-جل. وهذا ما يطلبه منا الإسلام.

وقد أدرك حديثاً الباحثون ـ من غير المسلمين ـ قيمة العقائد في توجيه سلوك الإنسان، فبدأوا يتحدثون عنها تحت عنوان: «أيديولوجيات». ولكنهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى المستوى الذي وصل إليه الإسلام، إذ هو يبني في الفرد المسلم إيماناً، لا يضارعه ولا يشابهه أي عنصر اعتقادي (أيديولوجي) يحاولون غرسه في نفس الفرد من أفرادهم.

العقيدة وثبوتها

معنى العقيدة:

أننا نعتقد بوجود أشياء كثيرة من ذوات وصفات أو بتعبير آخر: (من جواهر وأعراض)؛ ونجد قلوبنا مطمئنة بما نعتقد به ليس فيها أدنى شك، كاعتقادنا بوجود ذواتنا وصفاتنا، وكاعتقادنا بوجود أشياء كثيرة من حولنا في الأرض والسماء، ولو جاءنا الناس كلهم يحاولون تشكيكنا فيما نعتقد به لم يؤثّروا بنا أي أثر.

ذلك لأن علمنا بهذه الأشياء تحول من ساحة الإدراك الحسي إلى خزانة العلم والمعرفة في عقولنا؛ بسبب تكرار عملية الإدراك للصور الواردة من عالم الوجود الخارجي عن ذواتنا. ثم بمرور الزمن وتوارد الشواهد والأدلة التي تصدّق علمنا ـ ولو من غير شعور

ظاهري منا ـ، يتغلغل علمنا هذا في خزائن علومنا ومعارفنا إلى أعمق المراكز وأثبتها في داخلنا، وعند ذلك يكون علماً راسخ الأسس، ثابت البنيان، متين القواعد.

ومتى استقر فينا العلم هذا الاستقرار الراسخ، نرى أنه أصبح يوجه كثيراً من تصرفاتنا وأفعالنا، ويحرّك كثيراً من عواطفنا دون شعور ظاهري منا. ذلك أنه كما انعقدت أفكارنا وعقولنا على معرفةٍ غير قابلة للتشكيك، انعقدت عواطفنا عليه انعقاداً يصرّف أفعالنا وحركاتنا، وحبنا وبغضنا، بطريقة شعورية أو بطريقة لا شعورية. ومتى بلغ شعورنا بالشيء إلى حدٍّ أصبح يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا حمل اسم: (عقيدة).

الطرق التي تؤدي الى تركيز معتقدات في نفوس الناس:

ولكن هناك كثير مما يعتقده الناس قد يبلغ في نفوسهم هذا المبلغ الأسمى من تحريك العواطف وتوجيه السلوك، دون أن يدخل إلى أعماق الأنفس من طريق سليمة واضحة، أو منهج علمي صحيح. فعلينا إذاً في المسلك العلمي السليم أن نبحث في سلامة الطريق التي توصّل إلى أعماق نفوسنا أية عقيدة من العقائد.

فإن كانت طرقاً سليمة قاطعة، كانت معتقداتنا مرضيةً مقبولة، جديراً بها أن تتمركز في أعماق النفس، وأن توجه السلوك وتحرك العواطف. وإن كانت ظنوناً غالبة وضعناها في موضع الظنون الغالبة، القابلة للتعديل والتبديل والنسخ عند ورود اليقين أو الظن الأقوى، ولا نسمح لها أن تتمركز في مراكز العقائد الراسخة التي لا

تقبل التعديل أو التبديل. وإن كانت شكوكاً وخيالات وأوهاماً أو تقاليد عمياء رفضناها رفضاً باتاً، ولم نقبل أن تنتقل من مجال الوهم والخيال إلى خزائن العلم، فضلاً عن انتقالها إلى مراكز العقيدة. بل يجب على العقلاء إذا استولى وهَمٌ أو تقليد أعمى على نفوسهم، وأصبح يحرك عواطفهم ويوجه سلوكهم، أن ينسخوا ذلك من نفوسهم وأفكارهم، فإنه ليس صاحب حق في هذه السكنى الشريفة.

ومن ثَمّ نرى أن المعتقدات تسلك إلى نفوس الناس من عدة طرق: منها ما هو منطقي سليم، ومنها ما هو مقبول مع تطرق الاحتمال إليه، ومنها ما هو مزيَّف مرفوض.

أ ـ فأما المنطقي السليم: فما يسلك مسالك اليقين.

ب ـ وأما المقبول الذي يتطرق إليه الاحتمال: فما يسلك مسالك الظنون الغالبة.

ج ـ وأما المزيف المرفوض: فما يسلك مسالك الشكوك والأوهام والتقاليد العمياء.

الشرح:

ونحاول أن نعالج لك شرح هذه الطُرق بشيء من التفصيل مع ضرب الأمثلة على ذلك.

الطريق المنطقي السليم:

ولنبدأ من هذه الطرق بالمنطقي السليم الذي يسلك مسالك اليقين وتثبت به عقيدة صحيحة.

أولاً: سبق لنا في المقدمة أن ضربنا أمثلة مما يَرِد إلى ساحة

إدراكنا من العالم الخارجي عن طريق الحواس؛ ورأينا أن التسلسل مرّ فينا على الوجه التالي:

أ ـ تنقل حواسنا صورة الأشياء إلى ساحة الإدراك منا، ويتكرر ذلك عدة مرات مع يقيننا بسلامة حواسنا، وقد يضاف إلى ذلك شهادةُ توافقِ الناس في نفس الإحساس.

ب ـ ينتقل إدراكنا الحسي من ساحة الإدراك الظاهر إلى خزائن العلم الثابت والمعرفة المتمكنة.

ج ـ ثم يتغلغل ذلك العلم في أعماق نفوسنا، حتى يصبح قادراً على أن يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا.

د ـ وعند ذلك يكون عقيدة راسخة.

مثال ذلك: اعتقادنا بوجود أنفسنا، وبوجود الأرض من تحتنا، وبوجود السماء من فوقنا، وبوجود أشياء كثيرة تفوق الحصر، واعتقادنا بأن النار محرقة، والشمس مضيئة، والماء له صفة السيلان ينحدر من أعلى إلى أدنى، إلى غير ذلك. ونرى أن هذا المسلك مسلك منطقي سليم، ويفيدنا العلم اليقيني؛ لأنه يعتمد على شهادة الحس وبداهته. ونستطيع أن نسميه: مسلك الإدراك الحسي، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ.

ثانياً: ونرى أن أفكاراً كثيرة تصل فينا إلى مرتبة العقيدة الجازمة التي تحرك العواطف وتوجه السلوك؛ دون أن تنتقل كما هي من ساحة الإدراك إلى العلم فالاعتقاد، بل تُعامَل في داخل أفكارنا بالتحليل والتركيب والاستنتاج، ثم تتبلور هذه النتائج بصورة علم

جديد. ثم بعد تكرار الشواهد لعملية التحليل والتركيب والاستنتاج في مختلف الأمثلة والحالات النفسية؛ ينتقل هذا العلم الجديد المستنتج استنتاجاً إلى مراكز العقيدة في أعماق الأنفس.

ومثال ذلك كثير من علومنا ومعارفنا التي نعتقد بها اعتقاداً جازماً، وهي من العلوم التي توصلنا إليها عن طريق الاستنتاج بمسلك منطقي رياضي. كاستنتاجنا مثلاً: بأن عدد الألف أكثر من عدد المائة، وأن الكل أكبر من الجزء، وأن حاصل 5 في 6 = 30. وهكذا يفيدنا العلم اليقيني قطعاً فالاعتقاد الراسخ.

وكذلك كثير مما نستنتجه في حياتنا الدائمة من خلال بعض الظواهر التي نحسها: كعلمنا بأن طارقاً ما طرق الباب علينا حينما نسمع حلقة الباب تطرق. وأن سبباً ما قذف الحجر حينما نرى أن الحجر مرّ في الفضاء واستقر في فناء الدار. وأن مُتَعمِّداً بَيَّتَ أمراً ما حينما نرى انفجاراً وقع في مكان محروس، لا توجد فيه متفجرات ولا يحتمل أن يكون من سبب آخر. فكل هذه الاستنتاجات في حدودها المعقولة نرى أنها تفيدنا العلم اليقيني أيضاً؛ ثم تنتقل من خزائن العلم إلى مراكز الاعتقادات.

ونستطيع أن نسمي هذا المسلك الثاني: (مسلك الاستنتاج العقلي، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ). وهذان المسلكان هما الوسيلتان الواضحتان لاكتسابنا المعارف والعلوم المقترنة ببراهينها؛ التي تقدم نفسها للمناقشة والاعتراض، والأخذ والردّ، في كل جزئية من جزئياتها.

حثُّ القرآن على استخدام مسلكي: الإدراك الحسي، القاطع والاستنتاج العقلي القاطع من مسالك اليقين:

ولقد حث القرآن الإنسان على استخدام هذين المسلكين من مسالك اليقين الأول والثاني في آيات كثيرة. فمنها ما يدفع الحواس الظاهرة والباطنة إلى إدراك الحقائق المعروضة في الكون. ومنها ما يهز العقل هزاتٍ عنيفةً للبحث والتفكير، والنظر والاعتبار، والمناقشة والفهم.

فمن ذلك الآيات الكثيرة التي تدعو الإنسان إلى النظر في السمٰوات والأرض، وإلى النظر في تكوين نفسه، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

وكقوله تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

وكقوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾. ومن ذلك الآيات الكثيرة التي تحث على التعقل والتفكر وتمجدهما: كقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

وما أكثر الآيات التي تُختم بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقد قرر الله سبحانه أنه هيأ لجهنم كثيراً من الجن والإنس الذين عطَّلوا حواسهم وعقولهم؛ بقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾. كما نوّه سبحانه بتحسُّر أهل النار وندامتهم إذ أهملوا أسماعهم وعقولهم في الدنيا؛ بقوله ـ حكاية عنهم وهم يعذبون في النار ـ في سورة الملك: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾: ﴿سُحْقاً﴾ أي: بعداً لهم عن رحمة الله.

ثالثاً: عرفنا مما سبق كيفية اكتسابنا علوماً يقينية بالمسلكين الأول والثاني، وكيف تتحول هذه العلوم اليقينية إلى اعتقادات راسخة. وهناك مسلك ثالث يأتي عن طريق الخبر الصادق: فقد يقوم برهان العقل على أن مخبراً ما ـ فرداً كان أو جماعة ـ صادق قطعاً فيما يخبر به؛ فيمرُّ خبره على مراكز الإدراك للتأكد من صورة الخبر وفهم المراد منه، ثم ينتقل مباشرة فيكون علماً يقينياً، ثم يتحول إلى مراكز الاعتقادات فيكون عقيدة راسخة. ونستطيع أن نسمي هذا المسلك الثالث: (مسلك الخبر الصادق، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ).

الشرح:

أ ـ كلنا نعلم علماً يقينياً بوجود بلاد ـ مثلاً ـ اسمها: الصين، دون أن نرى هذه البلاد ودون أن نستطيع بطريق العقل استنتاج

وجودها، وإنما وصلت إلينا الأخبار المتواترة بوجودها. وكذلك نعلم علماً يقينياً بقيام الحرب العالمية الأولى، ونحن لم نحضر هذه الحرب، ولم نشاهد وقائعها، وإنما علمنا بها عن طريق الأخبار المتواترة. ولو جاءنا رجل فقال لنا: لم تقع حرب عالمية أولى، أو ليس في الدنيا بلاد الصين، لكذبناه بلا أناة، لأن خبره باعتباره آحاداً لا يقوى في أنفسنا على تضعيف الأخبار المتواترة.

ومن هنا نرى أن الأخبار المتواترة تفيدنا العلم اليقيني بداهة؛ لأنه مستقر في نفوسنا أنه لا يمكن عقلاً أن تتفق على الكذب هذه الكثرة الكاثرة من المخبرين؛ الذين اختلفت أحوالهم، وتباينت أغراضهم، وهم في حالة لا يجمعهم على الكذب جامع. فنحن نجد أنفسنا مضطرين عقلاً أن نقبل خبرهم، ونعتقد به حقيقة واقعة غير قابلة للشك، وإلا حُرِمنا أكثر العلوم والمعارف، وحُرمنا إدراك أية حقيقة من حقائق التاريخ.

ب ـ كما ثبت لدينا عقلاً صدق خبر الرسول فيما يخبر به عن الله تعالى مِنْ أحكام ومن أمور الغيب؛ وأن خبره يفيدنا العلم اليقيني قطعاً؛ لأن الرسول مشهود له من قبل الله بلسان حال المعجزة التي يجريها الله على يديه أنه صادق فيما يخبر به عن ربه؛ لأنه يخبر عن وحي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3، 4]؛ وكل ما يأتي به الوحي حق لا شك فيه.

وجُلّ عقائدنا التي نعتقد بها في ديننا قد جاءتنا عن طريق الوحي، نطق بها الرسول الصادق المؤيد من الله بالمعجزة. فيجب عقلاً تصديق الرسول في كل ما يخبر به من أحكام الشريعة ومن

أمور الغيب؛ والاعتقاد به اعتقاداً جازماً باعتباره يفيد العلم اليقيني، سواء أخبر به في نص آية من كتاب الله، أو أخبر به بكلام من عنده، لا فرق في ذلك مطلقاً؛ لأن الله في كتابه شهد له بأنه لا ينطق عن الهوى. فأصحاب الرسول الذي عاصروا الرسول ﷺ ما كانوا يفرّقون قطُّ في التسليم بما يبلغه الرسول إليهم من أحكام وغيوب بين آية قرآنية يرويها وبين حديث يقوله من عنده.

وأما بالنسبة إلينا فحيث لم نسمعه من الرسول ﷺ مباشرة بل سمعناه ممن رووا عنه ـ والذين رووا عنه ليسوا بمعصومين ـ، وجدنا أنفسنا بحاجة إلى أن نفرق بين ما نقِل لنا عن الرسول ﷺ بطريق متواتر يفيد العلم اليقيني، وبين ما نقل لنا عنه بطريق الآحاد الذي لم يبلغ مبلغ التواتر، ولا يفيد العلم اليقيني.

وبعد البحث والاستقراء، رأينا أن كتاب الله تعالى بكل ما فيه منقول إلينا بطريق التواتر الذي يفيد صدق النقل عن الرسول قطعاً؛ وذلك يفيدنا العلم اليقيني بأنه كلام الله، ومن ثم فمضمونه القطعي يفيدنا العلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ.

وأما أحاديث الرسول ﷺ فبعضها القليل منقول عن الرسول بطريق التواتر، فهو يفيدنا صدق النقل عن الرسول كالقرآن سواء بسواء، ومن ثم فمضمونه القطعي يفيدنا العلم اليقيني به، فالاعتقاد الراسخ، كالقرآن أيضاً.

ولكنَّ كثيراً من أحاديث الرسول منقولة إلينا بطريق الآحاد، فإن كانت صحيحة أفادتنا غلبة الظن في صدق نقلها، ومن ثم أفادتنا

غلبة الظن في العلم بمضمونها القطعي، وقد نعتقد بمضمونها اعتقاداً دون مرتبة اعتقادنا بما جاءنا عن الرسول بالتواتر.

إلا أن بعض أحاديث الآحاد التي تتضمن شيئاً من العقائد، قد تلقتها الأمة الإسلامية في عصورها الأولى بالقبول من غير نكير، فارتفعت بذلك إلى مرتبة المنقول بالتواتر؛ بالنظر إلى أن مضمونها قد أخذه المسلمون بالقبول من غير نكير، فكان ذلك تواتراً بالمعنى، فيفيد نفس ما يفيده المتواتر باللفظ.

ولا بد من أن نلفت النظر إلى أنه قد يكون الخبر قطعياً كالقرآن أو الأحاديث المتواترة، ولكن دلالة النص القرآني أو النص الحديثي المتواتر دلالة غير قطعية؛ لأنه يحتمل التأويل إلى عدة معان مثلاً، ولم نتمكن نحن من ترجيح بعضها على بعض بدليل قاطع، وإنما رجَّحنا بعضها على بعض بالظن الغالب. فلا يفيد إذ ذاك مضمون هذا النص العلم اليقيني الجازم، ومن ثم يصعب أن يتحول إلى عقيدة راسخة، ومن ثم فلا يصح لنا أن نُلزم بالاعتقاد به إلزاماً قطعياً أو نُكفِّر من لا يعتقد به.

ومن خلال الإيضاح السابق يتلخص لدينا ما يلي:

أ ـ أن الاعتقاد بصدق القرآن الكريم واجب عقلاً وشرعاً؛ ومنكر أنه كلام الله كافر.

ب ـ أن الاعتقاد بما دلّ عليه القرآن دلالة قطعية من أحكام وغيوب، واجب عقلاً وشرعاً؛ ومنكر ذلك كافر.

ج ـ أن الاعتقاد بأن الأحاديث المتواترة واردة قطعاً عن

الرسول ﷺ واجب عقلاً وشرعاً؛ ومنكر ذلك كافر.

د ـ الاعتقاد بما دلت عليه الأحاديث المتواترة دلالة قاطعة من أحكام وغيوب واجب عقلاً وشرعاً؛ ومنكر ذلك كافر.

هـ ـ أن أحاديث الآحاد التي تلقتها الأمة الإسلامية في عصورها الأولى بالقبول من غير نكير؛ حكمها حكم الأحاديث المتواترة.

و ـ أنه يكفَّر من أنكر عقيدة ثبتت بنص قطعي النسبة إلى رسول الله ﷺ؛ قطعي الدلالة على تلك العقيدة.

وأما من أنكر عقيدة ثبتت بدلالة ظنية في نص قطعي الثبوت، أو ثبتت بدلالة قطعية في نص ظني الثبوت كالأحاديث الآحاد، أو بدلالة ظنية في نص ظني الثبوت، فإنه لا يكفر بذلك. ولكنه إذا كان الظن غالباً ولم ينكر المنكِر وفق حجة واضحة، فإنه يكون فاسقاً عاصياً.

الإسلام ومنهجه في الاعتماد على الأدلة النقلية والتثبت من الأخبار، أو (الإسلام ونظرية البحث العلمي في المستندات الإخبارية):

ولمَّا كان الخبر الصادق أصلاً كونياً، وقاعدة إنسانية لا مندوحة من الاعتماد عليها في الحياة الاجتماعية؛ للتعرف على كثير من الحقائق التي لا يمكن لكل فرد أن يباشر معرفتها بنفسه عن طريق الحس، أو عن طريق الاستدلال العقلي، فقد اعتمدت الشرائع الربانية عليه اعتماداً كلياً في نقل الأخبار الإلٰهية للناس، وتبليغهم الأحكام والتكاليف الربانية، وغير ذلك، كما اعتمدت على الخبر في

تحصيل كثير من العلوم التي توصل إليها العلماء بمسالكهم المنطقية؛ وأمرت بسؤال أهل الذكر. قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: فاسألوا العلماء بتواريخ الأنبياء والرسل وأحوال الوحي إليهم؛ يجيبوكم بمثل ما نقرره لكم.

كما أمر الله تعالى نبيه بسؤال الذين يقرأون التوراة، للتأكد من صحة ما ينزل عليه من أخبار الرسل السابقين، إن كان في شك من الأخبار التاريخية عن الرسل وأقوامهم. والغرض من أمر نبيه بمثل هذا السؤال، التعريض بتوجيه الشاكين من أهل الكتاب لمثل هذا السؤال، ليتأكدوا من الحق الذي جاء به القرآن. قال تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

حتمية صدق الخبر:

ولكن الإسلام وضع منهجاً سليماً للتحقق من سلامة الأخبار وصدقها، فاشترط لحتمية صدق الخبر أن يأتي عن أحد مسلكين:

المسلك الأول: أن يَرِدَ الخبر على لسان الرسول، وقد أحاط الله الرسل الذين يبلِّغون عن الله بوضع يجعل التسليم بنقولهم وأخبارهم قضية حتمية عند المنصفين من العقلاء؛ ذلك بما صانهم به من العصمة عن الكذب وسائر المعاصي، وبما أيدهم به من المعجزات الباهرات، التي لا يأتي بها أو بمثلها إلا رسول مؤيد من عند الله، ومصدَّق من قِبله بلسان حال المعجزات. وإليك أمثلة وأدلة قرآنية:

1 ـ ويدلّ على هذا المعنى ما جاء في قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، كما أوردها القرآن الكريم. قالت ثمود لصالح فيما حكاه الله عنهم في سورة الشعراء: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وأمام هذا المطلب الحق، الذي يدلُّ على أنهم يطالبونه بالبينة على أنه صادق فيما يبلغ عن ربه؛ استجاب الله لمطلبهم، فأرسل لهم معجزة الناقة، وتوعَّدهم بالعذاب إذا هم كذبوا بعد هذا التأييد من الله بها. قال صالح فيما حكاه الله عنه في سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

2 ـ كما وضع الله المشركين الذين يَدْعُون من دون الله في مأزق حرج من المناقشة الحرة المنطقية؛ وفسح لهم مجال إقامة الدليل على ما يدّعون بالخبر الصادق، إذا هم عجزوا عن إقامة الدليل على ما يدَّعون عن طريق المشاهدة الحسية، أو عن طريق الاستنتاج العقلي. وذلك في قوله تعالى ـ يعلِّم رسوله ﷺ ـ في سورة الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

ألا نرى أن هذه الآية قد علمت الرسول كيفية مطالبة المشركين بالدليل الحسي أو الدليل العقلي؛ على إثبات هؤلاء الشركاء الذين يدعون من دون الله بقوله تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟! أثبتوا لي بدليل المشاهدة الحسية أو بدليل الاستنتاج العقلي من خلال

الظواهر الأرضية؛ ذلك الشيء الذي خلقوه من الأرض، حتى استحقوا بخلقه أن تجعلوهم شركاء لله!!

ثم علّمَه كيفية مطالبتهم بدليل الخبر الصادق على إثبات هؤلاء الشركاء الذين يدعون من دون الله؛ بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾. أي: فإن عجزتم عن إقامة الدليل الحسي أو العقلي، وادعيتم شركتهم في السمٰوات ـ وهي بعيدة عن مجال حسكم واستنتاجاتكم ـ فإننا نقبل منكم الخبر الصادق عن كتاب سماوي منزَّل قبل القرآن الكريم، أو الخبرَ الصادقَ عن بقيةٍ من علمٍ مأثور عن رُسُلِ من رسول الله يتلقى عن الوحي.

3 ـ أخذ اليهود يعترضون على سيدنا محمد ﷺ أن يأكل لحوم الإبل، ويشرب ألبانها، ثم يزعم بعد ذلك أنه على دين إبراهيم، فقال لهم النبي ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله، فقال اليهود: إنها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام.

فنزلت الآيات من سورة آل عمران تعلّم الرسول كيفية مناقشتهم ومطالبتهم بالخبر الصادق على ما يزعمون؛ وبإحضار التوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين. قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ ﴿إِسْرَٰٓءِيلُ﴾: هو سيدنا يعقوب عليه السلام. فجاءت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ فقال

رسول الله ﷺ: أنْشُدُكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرِّمنَّ على نفسه أحب الطعام والشراب إليه؛ وكان أحبّ الطعام إليه لُحْمَانَ الإبل، وأحبّ الشراب إليه ألبانها؟!

فقالوا: اللهم نعم.

المسلك الثاني: أن يخبر به جمع من الناس يستحيل في مقياس العقل السليم اتفاقهم على الكذب. ويلحق به ما تواردت عليه مجموعة من شواهد النقول الإخبارية، ودلائل الآثار الأرضية والكتابية، وبعض الاستنتاجات النظرية، حتى يصبح التسليم بمضمون الخبر أمراً حتمياً، لا شك فيه لدى العقلاء المنصفين، وحتى يصل في نفوسهم إلى درجة اليقين، كخبر الجمع من الناس الذين يستحيل عقلاً تواطؤهم على الكذب.

وهذا المسلك أصل مقطوع به شرعاً وعقلاً، وبه حفظ الله القرآن الكريم من التحريف والتبديل، إذ تكفّل بحفظه في قوله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

أما الاعتماد على دلائل الآثار: فيمكن الاستئناس له بقوله تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

وأما الاعتماد على الخطوط والكتابات: فنستطيع الاستدلال

له بأمر القرآن لنا، بأن نكتب عقود مُدَايناتنا لتثبيت الحقوق لأربابها، وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾.

أرجحية صدق الخبر، والاحتياطات في تحديد شروط نقل الأخبار بحسب موضوعاتها:

لقد أقر الإسلام الناس على أخبارهم فيما بينهم، شريطة توافر دلائل ترجيح الصدق فيها، ووضع لذلك منهجاً سديداً لتحرّي الصدق في الأخبار، ونفي ما كان منها كذباً واضحاً، أو مشكوكاً بأمره، أو مشتبهاً بكذبه. واشترط لأرجحية صدق الخبر أن يتوافر في كل راوٍ له شرطان:

الشرط الأول: العدالة: وهي أن لا يعهد على الراوي الكذب والمعصية الظاهرة.

الشرط الثاني: الأهلية الفكرية لتحمل الأخبار ونقلها على وفق ما حملها، دون نسيان أو اضطراب.

وقد صنف الإسلام الموضوعات التي تتضمنها الأخبار في عدة مراتب، وجعل لكل مرتبة منها شروطاً للتثبت من الخبر، بحسب أهمية موضوعه وبحسب النتائج التي تترتب عليه. وفي الفقرة التالية إحصاء لمراتب الأخبار: سواء كان المطلوب فيها أن يكون الصدق حتمياً، أو راجحاً وفق منهج علمي محدد، أو راجحاً في القناعة الخاصة للشخص المنقول له الخبر.

مراتب الأخبار وشروط أرجحية الصدق فيها، بحسب أهمية موضوعاتها والنتائج التي تترتب عليها:

الذي يظهر لنا من الإحصاء الشرعي في تقسيمات مراتب الأخبار، أنها تقع في ست مراتب، ولكل من هذه المراتب شروط محددة للتأكد من صدق الخبر فيها، وهي كما يلي مرتبة من الأعلى إلى الأدنى:

المرتبة الأولى: النقل عن الوحي، وشرطه النبوة المستجمعة لصفتي العصمة والتأييد بالمعجزة، وقد سبق شرح ذلك في فقرة حتمية الخبر.

المرتبة الثانية: مرتبة نقل الأخبار التي بلغها الرسل، المتضمنة إثبات عقيدة من عقائد الدين، أو أصل من أصوله الأولى، أو سورة من سور القرآن، أو آية من آياته. ونحو ذلك مما يكفر جاحده.

وهذه ينبغي للتثبت من صحة الخبر فيها وصدق الرواية، أن تنقل بالتواتر اللفظي أو المعنوي، أو ما هو في قوة التواتر؛ لأن موضوعاتها من الموضوعات التي يجب ـ بحسب مركزها من الدين وتكفير جاحدها ـ أن يتوافر عليها النقل بالتواتر، أو ما هو في قوته.

فإذا لم تنقل بالتواتر أو ما هو في قوته، مع وجود الدواعي لنقلها به، لم يَسُغ لنا أن نحلّها في مركز الأمور التي يكفر منكرها؛ لأن من يحكم عليه بالكفر والردة، يُحكم عليه بإهدار الدم لزوماً. وقد سبق مضمون هذه المرتبة في فقرة حتمية الخبر.

المرتبة الثالثة: مرتبة الاتهام بالزنى. وهذه المرتبة ينبغي للتثبت

من صحة خبر الاتهام فيها أن يتوافر على نقله والشهادة به أربعة شهداء؛ مشروط في كل منهم أن يستجمع صفات العدالة والضبط، وانتفاء التهمة، وفق البيانات الموضحة في كتب الفقه. وقد اشترط الإسلام الشهداء الأربعة في خبر الاتهام بالزنى، نظراً لأهمية موضوع الخبر؛ ونظراً لأن النفوس فيه يتجسَّم لديها الظن به، حتى يصل إلى مرتبة التحقق دون أدلة مادية فتشهد به؛ ونظراً لما يترتب عليه أيضاً من هدم الأسر وإقامة الحد الشرعي، والخزي والعار والفضيحة لمن ثبت عليه التهمة.

قال تعالى في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾. وقال تعالى في سياق حديث الإفك في سورة النور: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

المرتبة الرابعة: مرتبة إثبات الحقوق بين الناس بعضهم على بعض، وتتضمن هذه الحقوق: الحقوق المادية، والأدبية، والجنائية ونحوها. وهذه المرتبة ينبغي للتثبت من صحة الخبر فيها أن يشهد بالخبر رجلان ذوا عدل مِنَ المسلمين؛ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن يرضى المسلمون من الشهداء. ويشترط في كل شاهد أن تتوافر لديه العدالة والضبط، وانتفاء التهمة، وفق البيانات الموضحة في كتب الفقه.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ

إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟...﴾.
وقال تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

المرتبة الخامسة: مرتبة النقول العادية التي تتضمن أخباراً علمية أو تاريخية؛ أو رواية لحديث عن رسول الله ﷺ يتضمن مواعظ وآداباً وأحكاماً عملية، أو أخباراً عن بعض الأمور التي ستحدث في المستقبل، كأشراط الساعة، وأحوال يوم القيامة وما أشبه ذلك. وهذه المرتبة يكفي للتثبت من صحة الخبر فيها، أن يرويها راوٍ واحد يشترط فيه توافر صفتي العدالة والضبط، وفق البيانات الموضحة في علم مصطلح الحديث. وما أكثر الشواهد في النصوص الإسلامية على الاكتفاء بنقل خبر الواحد في حدود هذه المرتبة؛ ما لم تقم التهمة على المخبر، وعندها يحتاج إلى معزِّز يعزِّز خبره.

المرتبة السادسة: مرتبة النقول والأخبار التي تتناول مصلحة الشخص الذي يرد إليه الخبر في أمر من أمور دنياه، دون أن تتضمن هضماً لحق آخر أو اتهاماً له، كأن تتضمن مثلاً التحذير من خطر لا ضرر من الاحتياط في الحذر منه ولو بالظن الضعيف. وهذه المرتبة يكفي فيها انفتاح النفس لقبول صحة الخبر والاقتناع به، دون النظر في حالة المخبر وصفته؛ لأن موضوعه لا يتطلب أكثر من اتخاذ الاحتياطات والأسباب اللازمة لدفع الخطر أو الفرار منه.

ويمكن أن نستأنس لهذا بما جاء في القرآن الكريم في حكاية فرار موسى عليه السلام من مصر، بعد قتله الرجل من أتباع فرعون، ثقة بخبر

الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يخبره بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه. قال تعالى في سورة القصص ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

ويلاحظ أن هذه المرتبة هي التي يعتمد عليها الناس في أكثر أمورهم الشخصية؛ من تجارات وصناعات وزراعات، وأمور سياسية وعسكرية، وأشباه ذلك. وعلى قدر تفاوت الناس في دقة ملاحظاتهم، ومحاكماتهم لما يعرض لهم من أمور الدنيا، ينالهم التوفيق، ويحالفهم النجاح فيها بالنظر للأسباب الدنيوية الظاهرة.

خاتمة:

هذه هي الخطوط العريضة لمنهج الإسلام في الاعتماد على الأدلة النقلية والتثبت من الأخبار، عرضتها مجموعة في نسق فكري متماسك، وأما تفصيلاتها الجزئية وأمثلتها فموزّع بيانها في كتب أصول الفقه، وأصول الحديث، وكتب الفروع الفقهية، وبهذا الجمع يتضح للباحث إشراقة بديعة من سمو المنهج العلمي في الإسلام.

المسلك الرابع: مسلك الإضاءة الفطرية والإشراق الروحي

إذا عرفنا المسالك الثلاثة السابقة التي تفيدنا العلم اليقيني في عقيدة ما، وعرفنا أنه يمكن لنا أن نقيم بواحد منها الحجة القاطعة على المنكرين. فلا يفوتنا أن ننبّه إلى أن هناك مسلكاً رابعاً قد يصلح للمعتقد نفسه، ولكنه لا يغنيه في إقامة الحجة على الآخرين، إلا إذا

كان من الأمور التي يشهد الناس بصدقها. ألا وهو: (مسلك الإضاءة الفطرية، والإشراق الروحي).

فإننا نرى أن هناك كثيراً من الأفكار التي تصل إلى مرتبة العقيدة الراسخة؛ بما لها من تأثيرات تصل إليها، دون أن تمرّ بمراحل الإدراك الحسي فالعلم فالاعتقاد؛ ودون أن تمر بمراحل الاستنتاج العقلي، فالعلم، فالاعتقاد؛ ودون أن تمر بمراحل الخبر الصادق، فالعلم، فالاعتقاد.

ولكنَّها تتخذ طريقاً آخر إلى مراكز الاعتقادات، فقد تتخذ طريق الإضاءة الفطرية والإشراق الروحي، دون أن يستطيع صاحبها إقامة الدليل المادي على ما يعتقد به، وكثيراً ما يكون صادق الفطرة والإشراق، بدليل موافقة إشراقه الخاص لنتائج مسالك الآخرين البرهانية اليقينية.

بل ربما يكون ذوقه وإحساسه بحقائق الأشياء، أدقَ وأوضح من إحساس المستنتج استنتاجاً فكرياً، ذلك باعتبار أن هذا المسلك إذا صدق صاحبه فيه، ووضح لديه وضوح الذائق العارف؛ كان إشراقه نابعاً من صفاء نفس، وطهارة قلب، وتجرد عن شوائب المادة والشهوات والأنانية، فيستشف صاحبه من لمحات الغيوب بعض المنح الربانية له الخاصة به.

وهذا المسلك إذا كان الاعتماد فيه على الفطرة السليمة، في الحدود التي يشترك بها وبالتذوق عن طريقها، كافة الناس أو أكثرهم، فهو مسلك صادق النتائج قطعاً، وتقام به الحجة نظراً

لتوافق فطر الناس في تذوقه ومعرفته. أما إذا كان الاعتماد فيه على الفطر النادرة في هباتها الخاصة، التي لا يشترك فيها إلا أناس قليلون موهوبون، فإنه مسلك يصلح لصاحبه فقط، دون أن يقوم دليلاً على الآخرين، ودون أن يشتط به صاحبه حتى يخرج عما وردت به نصوص الشريعة؛ وإلا كان وسواساً من وساوس الشياطين. ومن هذا نرى أن بعض الصالحين يدرك بفطرته، وإشراق روحه ما لا يدركه كثير من عُلماء الإدراك الحسي، والاستنتاجات العقلية.

ونستطيع أن نطبق هذا على أشباه القصة المشهورة قصة الفخر الرازي والمرأة المؤمنة العجوز: (مرّ الفخر الرازي في الطريق وحوله أتباعه وتلامذته الكثيرون، فرأته عجوز مؤمنة في جانب الطريق، فسألت عنه فقالوا: هذا الفخر الرازي الذي يعرف ألف دليل ودليل على وجود الله تعالى؛ فقالت: لو لم يكن عنده ألف شك وشك لما احتاج إلى ألف دليل ودليل. فنُقلت كلمتها هذه إلى الفخر الرازي عليه رحمة الله، فقال: اللهم إيماناً كإيمان العجائز!!).

ومن هذا نرى أن هذه المرأة المؤمنة قد أدركت بإشراق روحها، وصفاء فطرتها، وجود الله وكمال صفاته، ولم تحتج إلى مناقشات كثيرة، ولا إلى ردّ شكوك، وتمركزت في أعماقها عقيدة صحيحة سليمة، لا تستطيع قوة في الدنيا أن تزحزحها، وكان طريقها لعقيدتها وإيمانها طريقاً مقبولاً منها، وصحيحاً لا شائبة فيه.

وقد حثَّ القرآن على تلمُّس هذه الفطرة الصافية في داخلنا بقوله تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ

﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الطريق المقبول الذي يتطرق اليه احتمال البطلان:

ونُثَنّي بالطريق المقبول الذي يتطرق إليه الاحتمال، وهو ما يسلك مسالك الظنون الغالبة:

والآن وبعد أن عرفنا مسالك اليقين الأربعة السابقة، نلاحظ مسالك مشابهة لها ولكنها دونها في المرتبة، فلا تنال درجة القطعية التي تنالها نتائج مسالك اليقين، ولكن الفكر يرتضيها ويقبلها باعتبار أن الظن يرجّح كونها حقاً، موافقة للواقع.

فمثلاً: قد لا يبلغ الإدراك الحسي مبلغ التحقق لنقص بعض شروط الإدراك الحسي، ولكنه يغلب على الظن صدقه.

وقد لا يبلغ الاستنتاج العقلي مبلغ اليقين، ولكنه يغلب على الظن أنه حق بالنظر إلى أماراته الظاهرة.

وقد لا يبلغ الخبر مبلغ القطعية؛ لأنه غير متواتر، ولا هو في قوة المتواتر؛ أو لأنه لم يبلّغه الرسول المؤيد من الله بالمعجزة؛ أو لأنه لم يبلغه عن الرسول عدد بلغ حد التواتر، ولم يقترن به ما يفيد قطعية معناه، ولكنه يغلب على الظن أنه صدق.

وقد لا يصل الإشراق الروحي في داخل النفس المشرقة مبلغ الوضوح والتحقق، ولكنه يغلب على الظن صدق الإشراق.

وفي كل ما سبق نسمي النتائج: (ظناً غالباً).

ونسمي تلك المسالك التي تؤدي إلى الظن الغالب: (مسالك الظنون الغالبة).

وقد رأينا أن مسالك الظنون الغالبة لا تؤدي إلى علم يقيني، ومن ثَمَّ فلا يصح أن تتحول الظنون إلى عقائد جازمة راسخة، غير قابلة للتعديل أو النسخ، بل تدخل في زاوية العلوم الظنية، ويجري الاعتقاد بها، والعمل بموجبها، حتى يأتي ما يعدلها أو يزيلها. ولا يعتبر منكرها جاحداً ولا كافراً، وقد نعتبره فاسقاً، وذلك حينما لا يوجد عنده حول نفس العقيدة دليل آخر، شكَّل في نفسه ظناً غالباً آخر يعتذر به عند ربه.

مثال ذلك: الأحاديث الآحاد في بعض أمارات الساعة وبعض شؤون الغيب، ونحو ذلك.

العمل بالظن الغالب في فروع الأحكام الشرعية:

وهذا المسلك يُكتفى به في إثبات فروع الأحكام الشرعية العملية، التي تعتمد على اجتهادات المجتهدين واستنباطاتهم. فمن أصول عقيدتنا الثابتة بيقين أنه يجب شرعاً العمل بها وفق ما انتهى إليه الاجتهاد، وإن اختلف المجتهدون في النتائج التي توصَّلوا إليها؛ لأن الغرض منها تحقيق معنى عبادة الله بالصورة التي يرضاها منا، وقد رضي منا حتماً أن نعبده تعالى بالصورة التي يصل إلى تحديدها اجتهاد المجتهدين منا؛ الذين توافرت لديهم أهليَّة الاجتهاد والبحث في مصادر الشريعة، كما هو مقرر في علم أصول الفقه.

الطريق المزيَّف المرفوض:

وقد آن لنا أن نُبيّن الطريق المزيف المرفوض، وهو ما يسلك مسالك الشكوك والأوهام والتقاليد العمياء.

وهنا نرى أنه قد تسلك المعتقدات إلى قلوب الناس طريق الشكوك، أو الأوهام والخيالات، أو التقاليد العمياء، فتصبح عقائد في أنفسهم، لها نفس التأثيرات السابقة، دون إدراك حسي، أو حجة عقلية صادقة، أو إشراق روحي واضح، أو ظنون غالبة. وإنما تتمركز في مركز الاعتقادات الفعالة تحت تأثير وهم برّاق، أو خيال محبَّب، وهذا لا يكون بحال مسلكاً صحيحاً ترتضيه العقول السليمة، بل هو مسلك زائف باطل، أو تحت تأثير تقليد محض من التقاليد غير المبصرة. كقولهم فيما حكى الله عنهم في سورة الزخرف: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أُمَّةٍ﴾: طريقة، ديانة.

وهذا المسلك أيضاً (مسلك التقليد في العقائد) مسلك زائف باطل؛ لأن المقلد قد أعد نفسه أن يسلك سنة التقليد بعصبية ممقوتة، سواء كان من يقلده عالماً أو جاهلاً، محقاً أو مبطلاً، منصفاً أو ظالماً. ولذلك نعى الله على المقلدين وذمَّ طريقتهم بقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

أعظم مطالب الإنسان في الحياة

إن بلوغ السعادة أعظم مطلب ينشده الإنسان في الحياة. ويبحث الناس عن الوسيلة التي يمكن أن تحقق لهم السعادة المنشودة.

فيتصوّرها طُلّاب المال بجمع أوفر نصيب منه، فيجرون وراء تحصيله وجمعه، ثم يكتشفون بالتجربة أن المال ربما كان سبباً لمتاعبهم وشقائهم، وأنه ليس هو الجسر الموصل إلى السعادة. ويتصورها طلاب الجاه والسلطان بالظفر بأكبر نصيب منهما، فيجرون وراءهما ويتقاتلون من أجلهما، فإذا ظفر منهم ظافر بما يريد، لم يجد أن الجاه والسلطان من أسباب ظفره بالسعادة المنشودة، وربما اكتشف بالتجربة أنهما كانا من أسباب متاعبه وآلامه الكثيرة، وأنه قد اجتاز جسراً إلى غير الغاية التي ينشدها.

وهكذا نجد طلاب اللذة والاستمتاع بالشهوات، ينتهون بعد التجربة إلى أنها لم تحقّق لهم السعادة المنشودة، وقد تجلب لهم آلاماً ومتاعب كثيرة مقيمة، وأن لذّاتهم كانت بمثابة رذاذ يبرِّد حرارة حاجات النفس، ثم يجف هذا الرذاذ بسرعة، ولا يبقى منه إلا الذكرى، وقد يخلّف عواقب سيئة مؤلمة، إذا لم يكن محدوداً بحدود المصلحة العاجلة والآجلة، وبحدود الخير الذي أذن الإسلام به.

ولدى الملاحظة، نجد أن المؤمنين بالإسلام يحسّون بمشاعر السعادة في قرارة نفوسهم، ويذوقون حلاوة طمأنينة القلب، وإن لم يكن لديهم ما يحبّون من مالٍ أو جاهٍ أو سلطان، وإن لم ينالوا ما

يشتهون من لذّات جسدية في الدنيا. ويشعرون أيضاً بهذه المشاعر السعيدة الحلوة، وإن كانت أجسادهم تُعاني آلاماً مُرّة؛ لأنهم يؤمنون بأن رضا الله يحفّهم، وبأن سعادة أخروية عظيمة دائمة مقيمة لا ترحل تنتظرهم، بفضل الله ورحمته، وأن غَمْراً من اللّذات وأنواع النعيم قد أعدَّ لهم في جنات الخلد. فهم يعيشون في أجواء هذه الرؤى الحلوة سُعَداء، وهم سيكونون بها يوم الدين في واقع تطبيقي، سعداء سعادة لا يستطيع التصور الحالي أن يصل إلى إدراك مستواها العظيم.

فالإيمان الذي جاء به الإسلام هوالكفيل بتحقيق أعظم ما ينشده الإنسان في حياته؛ إنها السعادة الخالدة العظمى، التي تبدأ في الحياة الدنيا بطمأنينة القلب ورضاه، وبالأمل الحلو الدائم بالخلود السعيد المغمور بأعظم ألوان النعيم؛ وتنتهي بواقع تطبيقي نفسي وجسدي وروحي، يصيب فيه المؤمن من السعادة الخالدة ما هو فوق مستوى التصور والأمل.

الوجود الإنساني في سلوكه السويِّ الفكري والاعتقادي والإرادي والعملي

عرفنا في البحوث السابقة كيف نكتسب المعارف والعلوم، وكيف ينبغي أن نُحلَّ كل فكرة في مركزها اللائق بها بحسب مستواها الفكري. وأنه لا يصح أن نحل الأوهام والشكوك في مراكز الظن الراجح، أو اليقين، ولا أن نحل الظنون الراجحة في مراكز اليقين، وأنه ينبغي أن لا يصل إلى مركز العقيدة الراسخة إلا الحقائق

العلمية اليقينية، التي اطمأن القلب لها واعترف بمضمونها.

وبذلك يتضح لنا أن العقيدة ينبغي أن ترتكز على ثلاث قواعد:

1 ـ الحقيقة العلمية (اليقين).

2 ـ طمأنينة القلب لها.

3 ـ الاعتراف والتسليم بمضمونها.

فمتى صارت الفكرة بهذه المنزلة عقيدة راسخة، صح أن توجه في الإنسان إرادته؛ ثم تقوم هذه الإرادة بدورها في توجيه الأمر والنهي إلى السلوك، معتمدة في الأمر على مبدأ المنفعة العاجلة أو الآجلة، التي تحددها العقيدة الراسخة المتفقة مع الشريعة الربانية؛ ومعتمدة في النهي على مبدأ المضرّة العاجلة أو الآجلة، التي تحددها العقيدة الراسخة المتفقة مع الشريعة الربَّانية.

ثم تمر أوامر الإرادة ونواهيها، مستخدمة في طريقها إلى السلوك بعض ما يناسبها من العواطف؛ لاكتساب الشعور باللذة والمسرَّة لدى تنفيذ الأعمال التي تأمر بها الإرادة حسب توجيه العقائد.

هذا في الأمور التي يمكن للإنسان أن يتوصل فيها إلى حقيقة علمية يقينية تتحول في أعماق نفسه إلى عقيدة راسخة.

أما في الأمور الأخرى، التي لا يستطيع الإنسان بحسب طاقاته

obeikandl.com

أن يتوصل فيها إلى يقين، وكذلك في الأمور المعاشية التي تقضي المصلحة بسرعة إنجازها؛ فإنه يصح أن تكتفي الإرادة بالتوجيهات التي تتلقاها من مركز الظنون الراجحة.

فإذا كانت الأعمال الداخلية الفكرية والإرادية في الإنسان، قد سارت في طريقها السويّ الذي أوضحناه، كان سلوكه في حياته ضمن الصراط المستقيم، وهو طريق الحق والخير الذي يوصله إلى السعادة الدنيوية والأخروية، كما يسهم بإيصال المجتمع الذي هو جزء منه إلى السعادة أيضاً.

وإذا كانت الأعمال الداخلية الفكرية والإرادية في الإنسان قد سارت في غير طريقها السوي؛ كان سلوكه في حياته مؤدياً به إلى منزلقات سبل الشر والضلالة، وذلك يؤدي به إلى الشقاء الأبدي، وإن تمتع في حياته ببعض اللذائذ العاجلة.

أمثلة لسير الأعمال الداخلية في الإنسان في غير طريقها السويّ:

منها أن تتحول التخيلات والأوهام والشكوك إلى عقائد موجّهة للإرادة، فتسلك مسلكاً شاذاً في داخل نفسه إلى مركز العقيدة. وكأن تتحول التقاليد العمياء إلى عقائد موجّهة للإرادة، فتسلك مسلكاً شاذاً في داخل نفسه إلى مركز العقيدة. وكأن تسيطر الشهوات والأهواء على مركز الإرادة في الإنسان، فتنساق الإرادة وفق رغبات الهوى الحيوانية الشهوية أو الغضبية، دون أن تتقيد بضوابط العقيدة الراسخة واليقين العلمي، أو الظن الراجح. وكأن تسيطر العواطف على مركز

الإرادة أو مركز العقيدة، فتنساق الإرادة وفق دوافع العاطفة المسيطرة الرعناء. إلى غير ذلك من صور كثيرة تجري في داخل النفس، ناشئة عن شيوع الفوضى في مملكة نفس الإنسان، أو ناشئة عن سيطرة جمهور الشهوات على السلطة التشريعية فيه (مركز العقيدة ـ مركز الظن الراجح)، أو السلطة التنفيذية (مركز الإرادة)؛ أو عن شذوذ وخلل في عمل المراكز الفكرية.

وبناءً على مسالك العقيدة الصحيحة، انقسم الناس إلى فريقين: مؤمن وكافر؛ ذلك إن المسالك الباطلة قد أودت بكثير من البشر إلى الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم، والهدى الذي أنزله الله، وأدّى إلى وجود فِرَقٍ ومذاهب في الأرض تؤمن بأفكار وفلسفات ومبادىء ناشئة من نفوس بعض الناس من أصحاب الهوى، والأنانية، وقِصَر النظر، فشرّعوا للناس، وسَنّوا لهم الدساتير والأنظمة فضلّلوهم، وسلكوا بهم مسالك الضلالة، فأبعدوهم عن هدى الله ودينه الذي ارتضاه لعباده.

الأحكام العقلية والأحكام العادية

الأحكام العقلية: كل ما يتصوره الفكر لا يخلو أن يكون واحداً من الأقسام الثلاثة التالية:

القسم الأول:

هو ما يقبل العقل إمكان وجوده وعدمه، ولو في حالة من الحالات التي يتصورها الذهن، وضمن شروط معينة، وطبق أنظمة خاصة.

وهذا القسم يسمى: (جائز الوجود)، أو (ممكن الوجود

عقلاً)؛ لأن وجوده أو عدمه ليس واجباً في العقل ولا مستحيلاً.

القسم الثاني:

هو ما يوجب العقل عدمه، ولا يجيز إمكان وجوده في أية حالة من الحالات التي يتصورها الذهن، مهما تسامح في تخيل الشروط المناسبة لقبول وجوده معها.

وهذا القسم يسمى: (مستحيل الوجود عقلاً).

القسم الثالث:

هو ما يوجب العقل وجوده، ولا يجيز إمكان انعدامه في أي حالة من الحالات التي يتصورها الذهن، مهما تسامح في تخيل الشروط المناسبة لقبول عدمه معها.

وهذا القسم يسمى: (واجب الوجود عقلاً).

الأمثلة:

أولاً ـ أمثلة ممكن الوجود عقلاً:

1 ـ نحن البشر موجودون على سطح الأرض بشكل واقعي، ولكن العقل يرى أنه كان من الممكن ألّا نكون موجودين. فوجودنا إذن أمر ممكن عقلاً لا واجب.

كما أنه كان من الممكن أن نكون على غير هذه الصورة التي نحن عليها، أو مزودين بغير الطاقات التي نحن عليها. فاتصافنا بصفاتنا التي نحن عليها أمر ممكن عقلاً لا واجب.

2 ـ النار محرقة أمر مشاهد في الكون، فإذا تركنا العقل يفكر ويتأمل في العلاقة بين النار والإحراق، فإنه لا يرى أي ارتباط عقلي خاص بين الإحراق وبين النار، إلّا أنه تكررت لديه في المشاهدة العادية للموجودات مشاهدة أن النار تحرق، فأثبت لها هذه الصفة من المشاهدة، وأسند الأمر إلى أن المنظم لهذا الكون أعطاها هذه الصفة.

أما العقل بذاته فلا يرى مانعاً عقلياً من أن تكون النار غير محرقة لو وجدت كذلك؛ أو أن تكون المواد التي تلامسها النار فتحرقها غير قابلة للاحتراق؛ وذلك لأنه لا يوجد ارتباط عقلي بين النار وبين الإحراق.

إذن: فكون النار محرقة أمر ممكن في العقل وليس بواجب.

3 ـ الأحياء التي نشاهدها إذا ماتت لا تعود إلى الحياة بعد موتها بحسب العادة المألوفة؛ لكنّ العقل لا يمنع من أن تعود الأجساد إلى الحياة بعد موتها، ولو أننا لم نشاهد بأعيننا ميْتاً رجع حياً، جُلّ ما في الأمر أن العقل يوجب لعودة الحياة وجود القوة المكافئة التي تتولى هذه الإعادة.

إذن: فالعودة إلى الحياة بعد الموت أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل.

4 ـ اجتياز الإنسان المسافات البعيدة في أقطار الأرض أو السماء بطرفة عين أمر ممكن عقلاً، ولو أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بحسب العادة، لكنّ العقل لا يمنع من أن يحصل هذا الاجتياز، إذا تهيأت الشروط الملائمة، ووجدت القوة المكافئة له. فهو إذن: أمر

ممكن عقلاً وليس بمستحيل.

5 ـ رفع جبل كبير وتثبيته في الجو بين السماء والأرض أمر ممكن عقلاً، ولو أننا ننكر ذلك بحسب مجرى العادات.

لكنه إذا تهيأت القوة المكافئة لرفع الجبل أمكن حدوث ذلك. فرفع الجبل أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل في حكم العقل.

6 ـ انقلاب الجماد إلى حيوان أمر ممكن عقلاً، ولو أننا بحسب العادة المستمرة لا نشاهد جمادات تنقلب إلى حيوانات، لكن العقل يحكم بأنه متى تهيأت الشروط الملائمة لهذا التحويل أمكن حصوله.

فهو إذن: أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل.

7 ـ وهكذا كل موجود ـ سوى الله تعالى ـ: فوجوده وصفاته، وكذلك انعدامه وانعدام صفاته، أمور ممكنة عقلاً وليس شيء منها ـ في حكم العقل المجرَّد ـ بواجب في العقل ولا مستحيل.

ثانياً ـ أمثلة مستحيل الوجود عقلاً:

1 ـ الشيء الواحد من جهة واحدة، وفي مكان محدد، وزمان محدد، وبصفة معينة؛ يستحيل في حكم العقل أن يكون موجوداً ومعدوماً معاً، مهما حاولنا أن نفترض الفروض البعيدة، ونتسامح في تخيل الشروط الملائمة. فالعقل لا يقبل جواز ذلك بحال، لأن الوجود والعدم وصفان متناقضان تمام التناقض، فمتى وجد أحدهما انتفى الآخر لا محالة، ومتى انتفى أحدهما ثبت الآخر لا محالة.

وجمع المتناقضين في شيء واحد، من جهة واحدة، في مكان واحد، وزمان واحد، أمر مستحيل عقلاً.

أما إذا انفكت الجهة أو اختلف الزمان فإنه لا استحالة، وذلك لعدم افتراض جمع المتناقضين معاً.

فقد يكون الشيء الواحد موجوداً في زمان معدوماً في زمان آخر، وموجوداً في مكان منعدماً وجوده في مكان آخر، وهكذا.

2 ـ الجزء من الشيء الواحد يستحيل عقلاً أن يكون أكبر من كل ذلك الشيء؛ لأن الكل مشتمل على جميع حدود الجزء وزيادة جزء آخر أو أجزاء أُخَر؛ فكيف يكون الشيء وحده أكبر منه مضافاً إليه شيء آخر، مع احتفاظه بحدوده دون تغيير شيء فيه؟! إنه لا يمكن أن يكون مثلاً عدد الخمسة أكثر من عدد العشرة بحال من الأحوال؛ لأن العشرة هي خمسة أضيف إليها خمسة أخرى.

3 ـ الدجال له عين عمياء، وهذه العين العمياء يستحيل عقلاً أن تكون عمياء وأن تكون أيضاً في الوقت ذاته من الدجال نفسه بصيرة غير عمياء.

إن العقل يحكم باستحالة ذلك، لأن في القضية دعوى اجتماع نقيضين مع اتحاد الشخص صاحب العين، والعين والزمان في توارد النقيضين اللَّذين متى وجد أحدهما انعدم الآخر لا محالة؛ ومتى انعدم أحدهما وجد الآخر لا محالة.

4 ـ من القواعد الفلسفية العقلية:

أ ـ (يستحيل عقلاً اجتماع النقيضين في شيء واحد وزمان

واحد). ولهذه القاعدة تطبيقات كثيرة.

ب ـ (ترجيح أحد المتساويين تساوياً تاماً على الآخر من غير مرجِّح مستحيل عقلاً). ولهذه القاعدة تطبيقات كثيرة أيضاً لا تخفى على المتأمل.

ج ـ (توقُّف وجود الشيء على وجوده نفسه، أو توقف انعدام الشيء على انعدامه نفسه، أمر مستحيل عقلاً).

مثال ذلك: كأن تقول: والله لا أدخل الدار حتى آخذ منك ألف درهم، ثم تقول عقب ذلك لمخاطبك نفسه: والله لا آخذ منك ألف درهم حتى أكون داخلِ الدار. فقد علّقت دخول الدار على أخذك ألف درهم من مخاطبك، ثم علقت أخذ الدراهم منه على كونك داخل الدار، فأصبحت القضية مستحيلة الحل، وذلك لتوقف الشيء على نفسه.

مثال آخر: ادَّعى مدّعٍ أن شيئاً معدوماً قد أوجد نفسه من العدم، قلنا له: هذا مستحيلٌ عقلاً. وذلك أنه لا يمكن أن يوجِدَ نفسه ـ حسب الادعاء ـ ما لم يكن موجوداً، لأن الايجاد يحتاج إلى قوة موجودة، ولا يمكن أن يكون موجوداً ـ حسب الادعاء ـ حتى يوجد نفسه، فتوقّفَ وجود الشيء المعدوم على وجوده نفسه، وهذا مستحيل عقلاً.

وقد يخفى هذا التوقف في بعض صوره على بعض الناس متى كثرت الوسائط بين الشيء وبين توقفه على نفسه؛ ومن أمثلة ما كثرت فيه الوسائط: أن نفترض أربعة أشخاص هم: خالد وسعيد وأحمد ومروان، عرض عليهم أن يساهموا في مشروع خيري، فقال خالد: والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له سعيد، ثم قال

سعيد: والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له أحمد، فابتدر أحمد وقال: والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له مروان، فقال مروان بهدوء: والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له خالد. وهكذا توقف بذل خالد المشروع على أن يبذل هو، وذلك بعد أن دارت القضية بالوسائط ورجعت إليه، وامتنع الكل من البذل. وهذا ما يسمى في عرف علماء الفلسفة والمنطق (بالدور السبقي)، ويعرّفونه بتوقف الشيء على نفسه، وهو مستحيل عقلاً.

5 ـ العقل يحكم بأن الله واحد لا شريك له وذلك بالبراهين والأدلة الكثيرة، فوجود شريك لله تعالى مكافىءٍ له أمر مستحيل عقلاً، لا يمكن قبوله بحال من الأحوال، وسيأتي الاستدلال على ذلك في مباحث وجود الله تعالى وصفاته العلية.

6 ـ دفع مغالطة:

إنّ عدم القدرة على فعل المستحيل ليس عجزاً، بل المستحيل عقلاً غير صالح أصلاً لأن يوجد. وتُطرح مغالطة حول المستحيل عقلاً وعدم تعلّق إرادة الله وقدرته به. وهذه المغالطة تقول: أيعجز ربنا تعالى عن فعل المستحيل عقلاً، وهو القادر على كلّ شيء، وهو على ما يشاء قدير؟!

ونقول: إنّ طرح مثل هذا التساؤل ليس صحيحاً أصلاً في منطق العقل، وفيما يلي بيان ذلك: لو قلنا: إن الله تعالى قادر على إيجاد المستحيل عقلاً، لكان هذا المستحيل ممكن الوجود، ولسقط القول بأنه مستحيل عقلاً، لكنه مستحيل عقلاً فلا تتعلّق إرادة الله وقدرته بإيجاده. إنّ كلّ ما هو مقدور عليه ولو من قِبَلِ قدرة الخالق، فهو غير مستحيل عقلاً، وإنّ كلّ ما هو مستحيل عقلاً فهو

غير صالح؛ لأن يوجد بحال من الأحوال، فلا تتعلق قدرة ما بإيجاده.

وعدم القدرة على فعل المستحيل عقلاً ليس عجزاً في القدرة، إذ العجز هو عدم القدرة على فعل ما يمكن وجوده، أمّا ما لا يمكن عقلاً وجوده فلا تتعلّق به القدرة أصلاً، وعدم تعلّقها به هو الكمال الذي ينسجم مع حقيقة المستحيل عقلاً.

فلو قال قائل: هل يعجز ربّنا تعالى عن إيجاد المستحيل عقلاً؟. فالجواب: إنّ إيراد مثل هذا التساؤل غلط فكري ناشىء عن عدم فهم المتناقضات. وذلك لأن المستحيل عقلاً لو كان صالحاً لأن تتعلّق به قدرة الخالق فتوجده لما كان مستحيلاً، لكن المفروض أنه مستحيل، فلزم اجتماع النقيضين، وهما: ادّعاء أنّ الشيء الواحد بذاته مستحيل الوجود وهو مع ذلك غير مستحيل الوجود. إنّ هذا تناقض مرفوض عقلاً، وبالبديهة العقلية.

إنّ العجز هو عدم القدرة على فعل ما لا يستحيل في العقل وجوده، أي هو ممكن الوجود عقلاً. أمّا المستحيل فعدم القدرة على فعله لا يُسمّى عجزاً، ولا يعتبر في منطق العقل عجزاً، بل الشيء المستحيل نفسه هو الذي لا يصلح لأن تتعلّق به أية قدرة لإيجاده.

وأُمثّل لذلك بمثال تقريبي فأقول: إنّ كلمة (ضرب) مؤلفة من ثلاثة حروف هي: (ض ر ب). ويمكن أن نرتب هذه الحروف نفسها دون زيادة ولا نقص مع فتح حركة الحرف بعدة وجوه، وهي بالحصر الوجوه الستة التالية: «1 ـ ضرب 2 ـ رضب 3 ـ برض 4 ـ

ضبر 5 ـ ربض 6 ـ بضر» هذه هي الوجوه المحتملة الممكنة بالحصر العقلي. إذْ كل حرف من هذه الأحرف الثلاثة قد وُجِدَ في هذه الاحتمالات أوّلاً، وثانياً وثالثاً.

فإذا قال لك قائل: أوجد احتمالاً لصياغة كلمة من هذه الأحرف الثلاثة غير الكلمات التي جاءت في الحصر، وإلّا فأنت عاجز. كان جوابك: لست عاجزاً، إذْ لا يوجد في الحقيقة احتمال سابع يمكن أن يُوجَد حتى أوجده، إن مثل هذا الاحتمال المطلوب غير متصوّر، وغير صالح لأن يوجد، إنّه مستحيل، باعتبار أنّ الاحتمالات الممكنة قد انتهت كلّها بهذه الكلمات الستّ، وستظلّ هذه الحقيقة أزلية أبديّة والأمثلة المناظرة لهذا كثيرة.

ثالثاً ـ أمثلة واجب الوجود عقلاً:

ينحصر وجوب الوجود في الخالق جلّ وعلا وفي صفاته العلية.

وقد قام الدليل العقلي على أن وجود الخالق العظيم واجب، وأنه يستحيل عدمه، لأن العقل لا يجيز بحال أن يكون العدم هو الأصل ضد الوجود، إذ لو كان الأصل لاستحال أن يتحول العدم بنفسه إلى وجود، بما فيه من ذوات وصفات وقوى. وسيأتي في مباحث وجود الله تعالى الاستدلالات المنطقية والعلمية على ذلك.

الأحكام العادية:

عرّفنا الأحكام العقلية فيما سبق، وتُناظرها تماماً الأحكام

العادية، إلا أننا في الأحكام العادية لا نراقب ما يحكم به العقل بشكل مستقل؛ وإنما ننظر إلى النظام القائم بحسب العادة الجارية.

فالممكن في العادة: هو كل أمر يصح أن يوجد ويصح أن لا يوجد بحسب مجرى العادات، لأننا نشاهد وجوده مرة وعدم وجوده أخرى. فيمكن مثلاً: أن ينزل المطر في شهر كانون ويمكن أن لا ينزل. ويمكن أن تهب الرياح العاتية في الصيف ويمكن أن لا تهب. إلى غير ذلك من أمثلة لا تحصى.

والمستحيل في العادة: هو كل أمر يخالف القانون المتبع باستمرار في نظام الكون. وكثيراً ما يكون هذا الأمر المستحيل في العادة أمراً ممكناً في العقل؛ لكن النظام المستمر في الكون ـ الذي لم نلاحظ تخلفه ـ جعل هذه الأمور من المستحيلات في مألوف الناس وما اعتادوا مشاهدته باستمرار دون تخلف. كإحياء الموتى، وتحويل العصا حيَّة تسعى.

والواجب في العادة: هو ضد المستحيل في العادة، وهو كل موجود لم نلاحظ في العادة تخلفه. كآثار قانون الجاذبية، ونظام خروج النبات من الأرض، إلى غير ذلك من أنظمة لم نشاهد تخلفها. وهذا الواجب وجوده في العادة هو من الأمور الممكنة عقلاً.

الأسئلة الكبرى الملحَّة في نفس الإنسان

ثلاثة أسئلة تلحّ على الإنسان في داخله، وتضعه أمام مشكلات ثلاث، يتطلب حلّها. فإمَّا أن يعيش في قلق وحيرةٍ تجاهها، وإمَّا أن يطرحها عن فكره طرحاً كلياً ويعيش في دوّامة كما

تُسيّره مطالب حياته؛ وإمَّا أن يظفر بحلّها حلًّا صحيحاً يطمئن إليه قلبه، وتهدأ إليه نفسه، فيسير في حياته بهديه.

السؤال الأول: من الذي أوجدني بعد أن لم أكن شيئاً مذكوراً؟

السؤال الثاني: ما هي الغاية التي وجدت من أجلها مزوداً بخصائص: من عقل وإرادة حرَّة وغرائز وأهواء وشهوات، في حياة ذات مسالك متشعبة فيها الخير والشر؟

السؤال الثالث: إلى أين المصير بعد عبور جسر هذه الحياة، وما هي النتائج التي تترتب على أعمالي فيها؟

وقد أعطانا الإسلام الأجوبة على هذه الأسئلة الملحة، ولفت أنظارنا إلى الأدلة العقلية والبراهين الواقعية التي تدلّ عليها، وقدم لنا الحلّ لأكبرِ المشكلات المحيرة للإنسان في هذه الحياة.

فأبان لنا أن الله هو الذي خلقنا مِن العدم، وقدم لنا الأدلة على ذلك من ظواهر الكون ومن أنفسنا، وعرّفنا أن الله أزلي أبدي له كل صفات الكمال، وهو منزّه عن كل صفات النقصان.

وأبان لنا أن حكمة الله اقتضت أن يخلقنا بهذه الخصائص التي منحنا إياها؛ ليمتحننا ويبلو إرادتنا في ظروف هذه الحياة، وقدَّم لنا الأدلة المنطقية على ذلك، وهي الأدلة المستندة إلى حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

وأبان لنا أن وراء هذا الامتحان حكمة الجزاء بالثواب أو بالعقاب؛ وأن الجزاء الأمثل لا يكون في ظروف هذه الحياة الدنيا،

وإنما ادَّخره الله لحياة أخرى تكون بعد هذه الحياة، فإليها يكون المصير. ووضع في أيدينا الأدلة المنطقية الدالة على ذلك، وهي الأدلة المستندة إلى حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

وحين يجد الإنسان الجواب الصحيح على هذه الأسئلة الثلاثة، تنحل لديه المشكلات الكبرى في تصوراته لهذه الحياة، وتتضح له معالم الطريق الذي يجب عليه أن يسكله.

وقد يتفرع عن هذه الأسئلة الثلاثة أسئلة أخرى ـ وتأتي العقيدة الإسلامية فتجيب عليها الجواب الصحيح، المقرون بالأدلة والبراهين المنطقية ـ منها الأسئلة التالية:

1 ـ من يبلّغنا عن الله مواد امتحاننا؟ والجواب: الرسول.

2 ـ كيف يتصل الله بالرسول؟ والجواب: بالوحي.

3 ـ هل ينزل الله لنا بيانات تكون فينا نصوصاً ينقلها خلف عن سلف؟ والجواب: نعم ينزل كتباً هي الكتب السماوية الربانية.

إلى غير ذلك من أسئلة.

كيف أنشأ الإسلام القاعدة الإيمانية

من الواضح أن أسس القاعدة الإيمانية في الإسلام أسس فكرية علمية منطقية؛ ولذلك فإن الطريق إلى إنشاء هذه القاعدة إنشاءً صحيحاً، يجب أن يعتمد على منطق الفكر القويم، والعلم الصحيح، وهذا ما لجأ إليه الإسلام في إنشاء قاعدته الإيمانية.

وطريقة الإقناع القرآني بعناصر القاعدة الإيمانية، هي التي

هدتنا إلى هذه الحقيقة. أما خطة الإنشاء فقد بدأت بتحرير أرضية النفوس من كلّ العقائد الباطلة، التي ليس لها أساس منطقي أو علمي، وذلك بوسائل الإقناع الهادىء، والمناظرة الحكيمة الخالية من التعصب الذميم، ومن كل ظلال له، وقد اعتمد الإقناع على الوسائل المنطقية العقلية والعلمية.

وعقب تحرير النفس من جذور العقيدة أو العقائد الباطلة، تنتقل الخطة إلى غرس أوليات العقيدة الإسلامية، في أرضيَّة نفسية حرة من الشوائب، ثم يجري تعهد الغراس بالتغذية والإنماء، وبإضافة العقائد التي تشتق منها، وتلزم عنها، وبالعمل على متابعة تحرير ما تبقى في أرضية النفس العامة من كلّ عقيدة باطلة، وغرس العقائد الصحيحة في أمكنتها، وتعهدها بالتغذية والإنماء.

وكان لأسلوب التدرُّج أثره العظيم في كلّ مرحلة من مراحل العمل، وهو الأسلوب الذي تقتضيه سنة الإنشاء السائدة على كل شيء في هذا الكون، وهي سنة الخالق في الخلق.

وأسلوب التدرج في إنشاء القاعدة الإيمانية يكون: بالبدء بما يقع منها موقع الأساس، وهو الإيمان بالله، وبوحدانيته، وبسائر صفاته العظمى. ثم الانتقال إلى ما يلزم عن هذا الأساس الأول من عقائد، مع التدرج في ذلك وفق التسلسل المنطقي. والوسيلة الأولى إلى كلّ ذلك إقامة البراهين، والأدلة العقلية والعلمية المستندة إلى البدهيات المسلَّمة لدى عقول المخاطبين: كقانون السببية المسيطر على أحداث الكون، وقانون حاجة الممكن إلى مخصص، وحاجة الحادث إلى محدث، وحاجة ظاهرة الإتقان إلى فاعل متقن، وحاجة

ظاهرة العدل والحكمة إلى عليم عادل وحكيم... وهكذا.

وبعد هذه الوسيلة الإقناعية تأتي وسيلتا: الترغيب بالمثوبة والترهيب من العقوبة، العاجل من ذلك والآجل.

ونظرة إلى عناصر القاعدة الإيمانية تكشف لنا أن: الإيمان بربوبية الله تعالى ووحدانيته في الخلق والأمر وسائر صفات الكمال يقع في المرتبة الأولى؛ فهو بمثابة الجذر الرئيسي.

ثم يأتي في المرتبة الثانية توحيد الألوهية ـ أي: إفراد الله تعالى بالعبادة والخضوع لأمره وطاعته ـ باعتبار أنّ هذا هو اللازم الأول لتوحيد الربوبية؛ فمن هو الرَّب الواحد ـ أي: الخالق الرازق المالك المربي المنعم ـ الذي يجب أن يُفرد وحده بالعبادة إذ لا يستحقها غيره.

ثم يأتي بعد ذلك ما يلزم عن حكمة الخالق: فمن لوازم صفة الحكمة أنه لم يخلق هذا الخلق عبثاً، وهذا يهدي العقول الحصيفة إلى أن الإنسان بخصائصه المتنوعة (العقل والإرادة والغرائز والشهوات) في مجال مفتوح؛ له أن يفعل فيه الخير والشر، إنما خلق للابتلاء، والابتلاء يستلزم قانون الجزاء، وإلّا خلا من الحكمة وكان عبثاً.

وبما أن الحياة الدنيا هي الزمن المخصص لهذا الابتلاء بكلّ ظروفها وأحداثها؛ فلا بدَّ من حياة أخرى يكون فيها الجزاء الأمثل، وهنا يبرز لنا عنصر الإيمان باليوم الآخر.

أما ما يحدث في ظروف هذه الحياة الدنيا من جزاءات معجلة فالغرض منها: العظة أو التذكير، أو التربية والتطهير. ثم إن الابتلاء

الأمثل يقتضي بيانَ موادّهِ حتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره تجاه خالقه، لذلك اقتضت حاجة الإنسان أن يرسل الله له من يُبَيِّن له موادّ امتحانه في ظروف الحياة الدنيا؛ حتى لا يكون له عذر يعتذر به. وهذا يفتح آفاق الفكر إلى قبول ركن الإيمان بالرسل.

ثم نلاحظ أن من تمام الحكمة: أن يكون مع الرسل بيانات ثابتة في نصوص منزّلةٍ، تكون دستوراً للناس يعملون به، ويهتدون بهديه، ولو انتهت حياة الرسل. وهذا يفتح آفاق الفكر إلى قبول ركن الإيمان بالكتب. ويتساءل الفكر الإنساني: كيف يرسل الخالق الذي لا تُدْرِكُهُ الأبصار رسلاً من البشر؟. وكيف يتصل بهم؟. وهنا كان لا بد من بيان ظاهرة الوحي وحقيقتها، وبيان إمكانه، وبيان وساطة الرسل من الملائكة. وكان لا بد أيضاً من التوثق من صدق من يدّعي أنه رسول الله، فاقتضى الأمر تأييد الرسل بالآيات الدَّالّات على صدقهم، وهنا تبرز لنا ظاهرة المعجزات التي يؤيِّد الله بها رسله.

وترافق كلّ ذلك تفصيلات توضح أركان القاعدة الإيمانية وعناصرَها وأجزاءها، وكل ما لا بد منه لاستكمال صورة هذه القاعدة، أو ما يحسن أن تُستكمل به.

الفصل الرابع

الإسلاَم وَالإيمَان

إن الاسم الديني الذي يجمعنا ـ شعوباً وقبائل وأقواماً ـ في أمة واحدة؛ إنما هو الإسلام. قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ...﴾ وقال أيضاً في سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقال أيضاً في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا...﴾.

فنحن مسلمون حيث كنا، ومن أي عرق انحدرنا، وبأية لغة نطقنا. ولهذا الاسم حقيقة تتمثل بالمبادىء التي بُنِيَ عليها الإسلام، وبالمنهاج العملي الذي رسمه، وبالهدف والغاية التي حددها. ومتى اعتنق الفرد هذه المبادىء، وارتضى لنفسه العمل بهذا المنهاج، صح أن يطلق عليه اسم: (مسلم)، وأن يعتبر عضواً من أعضاء هذه الأمة الإنسانية الكبرى.

وعلينا أن نتفهم معنى كلمة (الإسلام)، في مفهوم هذه الديانة الربانية الحقة، حتى نقارن بينه وبين الأفراد المنتسبين، ونعلم من هو

الذي يصح أن يطلق عليه هذا الاسم الشريف.

معنى الإسلام:

لكل مبدأ إنساني له حظ من النظر ثلاثة أطراف:

1 ـ فلسفة علمية: تهيمن على جوانب التفكير في الإنسان، ثم تتحول إلى عقائد راسخة، فتكون هي أساس هذا المبدأ.

2 ـ مظاهر سلوكية: ترتبط بالأسس التي هي العقائد الموجِّهة، فتوجِّه الأقوال والأفعال والعادات والتقاليد على وفقها.

3 ـ غايات وأغراض: تكون هي الهدف المنشود من اعتناق هذا المبدأ. والإسلام بوصفه مبدءاً إنسانياً ـ بل هو مركز القمة من المبادىء الإنسانية، لأن الله قد اختاره للناس ـ لا بد وأن يكون له أطراف ثلاثة وهي:

أ ـ فلسفة علمية: تُكَوِّن عقيدة المسلم.

ب ـ مظاهر سلوكية: على وفق عقيدته.

ج ـ غايات وأغراض: ينشدها من إسلامه.

ومفردات هذه الأطراف الثلاثة هي التي تعطي صورة كاملة عن حقيقة الإسلام؛ وهي التي تصحح لمن اتصف بها أن يطلق عليه اسم (المسلم الكامل).

أما **الطرف الأول** ـ وهو الطرف الذي يكوِّن عقيدة المسلم ـ: فلا بد ـ كما بينا في مبحث (أهمية العقيدة وثبوتها) ـ من أن يسلك

obeikandl.com

إلى أعماق المسلم مسالك اليقين، فعقيدة المسلم لها فلسفة علمية، على أسس منطقية صحيحة، وطرق يقينية ثابتة.

وإذا نظرنا إلى العقيدة التي ينادي بها الإسلام من خلال نصوصه، وجدناها ترتكز على أصول ستة هي: الاعتقاد بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى. وهذه الأصول هي المعلن عنها في كثير من الآيات والأحاديث؛ ومن وراء هذه الأصول فروع كثيرة.

وهذا الطرف الاعتقادي هو ما يسمى في الاصطلاح الإسلامي: (بالإيمان). وعلى ذلك جاءت الآيات الكثيرة تستعمل لفظة الإيمان ومشتقاتها: آمن، يؤمن، مؤمن. والإيمان يساوي في المعنى ما قررناه بأنه: الطرف الاعتقادي في المسلم.

وأما الطرف الثاني: وهو الطرف الذي يحدد سلوك المسلم في أقواله وأفعاله، ومعاملاته وأخلاقه، وعاداته وتقاليده وفق عقيدته. فهو الموضع في المنهاج الإسلامي، الذي يعطي الصورة التامة لجميع المظاهر وأنواع السلوك في الفرد المسلم؛ والأسرة المسلمة، والمجتمع الإسلامي، والدولة المسلمة. وقد رسم هذا المنهاجَ ـ بشكليه: الإجمالي والتفصيلي ـ المصدران الإسلاميان الأساسيان وهما: القرآن والسنة، وما يلحق بهما، فمنه ما هو من قبيل الأوامر، ومنه ما هو من قبيل النواهي.

فمن الأوامر مثلاً: الأركان العملية الخمسة الهامة، المصرَّح بها في كثير من الآيات والأحاديث، ويجمعها قول الرسول ﷺ: **«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»**.

ومن النواهي مثلاً: المحرمات المصرَّح بها في مثل قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ ومعنى: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: ذُبِح على اسم غير الله و﴿الموقوذة﴾: المقتولة ضرباً و﴿النُّصُب﴾: وجمعه أنصاب: وهي الأصنام.

ونلفت النظر إلى أن هذا الطرف لا بد في صحته والاعتراف به من أن يكون مرتكزاً على الطرف الأول «الطرف الاعتقادي».

فلو وجد من غير أن يرتكز على الطرف الاعتقادي: فإن عرفنا ذلك بتصريح الشخص بإنكاره العقيدة الإسلامية، كلها أو بعضها، لم يكن عملاً إسلامياً قطعاً، ولو شاكل في الصورة العمل الإسلامي. وإن لم نعرف ذلك اعتبرناه في الصورة عملاً إسلامياً، بالنظر لجهلنا بالبواطن، وعدم استطاعتنا أن نشق على القلوب، ونكتشف ما فيها من عقائد، وأما في الحقيقة: فلا يعتبر عملاً إسلامياً، أو صفةً دالة على حقيقة المسلم، لأنه فقد جوهر العقيدة، التي هي شرط في صحة العمل.

ويدلنا على هذا أن أول رُكن من أركان الإسلام ـ الذي هو

الشهادة بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ ـ أُخذ فيه لفظ الشهادة؛ ومعنى الشهادة: قول باللسان يوافق ما في القلب. فإذا قال بلسانِه: «أشهد» وليس ذلك عقيدة في قلبه، كان كاذباً، وإذا كان كاذباً بطل لفظه، وكان عند الله منافقاً. ولذلك لمَّا شهد المنافقون لمحمد بأنه رسول الله، وقلوبهم لا تعتقد ذلك، كشف الله كذبهم وكذَّبهم بهذه الشهادة. قال تعالى في سورة المنافقون: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

وعن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوت رفيع فقال: (يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفضِ الإيمان إلى قلبه: لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم، يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه ولو في جوف رحله) رواه الترمذي.

ومثل الكلام في ركن الشهادة الكلام في بقية أنواع السلوك الإسلامي؛ حيث إن النية ـ بمعنى الغاية والهدف من العمل ـ شرط في كل عمل إسلامي؛ وبهذه النية يكون العمل صحيحاً مقبولاً عند الله، أو باطلاً مرفوضاً. والنية الصحيحة لا بد وأن تكون مرتكزة على العقيدة؛ وقد صرح القرآن بأن أعمال الكافرين كالرماد، وكالسراب، وكالهَباء المنثور، لا يقبل الله منها شيئاً. ومن ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

وأما الطرف الثالث: فهو الطرف الذي يحدد الغايات التي ينشدها المسلم من إسلامه؛ في الطرفين السابقين الاعتقادي والسلوكي. فإذا نظرنا إلى تحديد غاية المسلم، نرى أن غايته تتسلسل وفق المراحل الثلاث التالية:

المرحلة الأولى: إن المسلم حينما يبحث بعقله ـ الذي هو أكرم منحة فيه ـ حتى يعرف الله من دلائل الكون، إنما يسعى لتكميل نفسه بالمعرفة، وكمال النفس بالمعرفة من أعظم أنواع السعادات. ومتى عرف الله، وعرف عظمته، وكمال صفاته، آمن بكل ما يأتيه عن الله من علوم الغيب، وتجدد عنده الشوق لتحقيق الغاية الثانية وهي ما في المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: السعادة ببلوغ كمال الخلق الإنساني، فيسرع المسلم ـ الذي اجتاز مرحلة البحث للمعرفة ـ بكل طاقاته لحمد الله والثناء عليه بكمالاته؛ والثناءُ: هو الاعتراف للعظيم بصفته. كما يسرع لشكر الله على نعمه بالعبادة؛ والشكر: هو الاعتراف العملي للمنعم بإنعامه.

ومن ثَمَّ يذعن لأوامر الله ونواهيه طاعة له، لأنه الخالق العظيم، والرب القادر على كل شيء، العادل في أحكامه. وبذلك تتحدد غايته من أنواع سلوكه الإسلامي، بغاية الغايات وهي ما في المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: السعادة بابتغاء مرضاة الله تعالى في كل الأمور، وفي ابتغاء المسلم الحامد الشاكر مرضاة الله تحقيق جميع صور السعادة لنفسه، وفكره، وحياته، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار الجزاء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى غاية تكميل النفس وتحصيل السعادة بالمعرفة؛ بآيات الحث على النظر في آلاء الله، وصرح بأن من لم يكمل نفسه بهذا الكمال العلمي، باستخدام وسيلة النظر وهو العقل، فهو وفاقد العقل سواء. صرح بذلك في مثل قوله تعالى يصف الكافرين في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

كما أشار القرآن إلى غاية تكميل خلق الإنسان بتزكية نفسه، وبإبعادها عن خساسة الجحود والكنود، في مثل قوله تعالى في سورة الشمس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾.

ومعنى ﴿**زكاها**﴾: طهرها من الذنوب بالتزام الطاعة لله. ﴿**دسّاها**﴾: غمرها بمعصية الله، حتى اختفى جوهرها واستعدادها الطيب لكمال الخلق الإنساني.

وفي الآيات التي تصف الكافر بأنه كنود جاحد لنعم الله عليه. كقوله تعالى في سورة العاديات: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ وكقوله تعالى في سورة عبس: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾.

كما أشار كل من: القرآن العظيم والحديث النبوي الشريف، إلى تحديد غاية مرضاة الله في أنواع السلوك الإسلامي. فمن القرآن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ وقوله تعالى في سورة البقرة أيضاً: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

وفي ذلك تحديد للغاية من السلوك بأن تكون ابتغاء مرضاة الرب تعالى.

ومن الحديث قوله ﷺ: «**إنما الأعمالُ بالنياتِ وإنما لِكُلّ امْرىءٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرته لدنيا يصيبها أو امرأة يَنْكِحُها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه**» (رواه البخاري ومسلم).

قابلية أطراف الإسلام الثلاثة للتقصير والمخالفة، أو عدم قابليتها:

إذا عرفنا هذه الأطراف الثلاثة للإسلام: (الطرف الاعتقادي، والطرف السلوكي، والطرف الذي يحدد الغاية من العقيدة والسلوك).

فنقول: هل هذه الأطراف أو بعضها، قابل للتقصير والمخالفة، أو غير قابل لذلك؟

ونجيب على ذلك إجمالاً: بأن بعضها يحتمل شيئاً من التقصير والمخالفة، من غير أن يكسر ذلك قناة الإسلام في قلب الفرد المسلم؛ وبعضها لا يحتمل شيئاً من التقصير والمخالفة بحال من الأحوال، فإذا حصلت المخالفة أو التقصير فيه، كسرت قناة الإسلام في قلبه، واعتبر في صف أهل الكفر حتى يتوب.

ونشرح هذا الإجمال بتفصيل الأمر في كل طرف على انفراد.

١ ـ **أما الطرف الاعتقادي**: فلا هوادة في شيء منه بحال، فمن أنكر شيئاً من مفرداته الثابتة بيقين لم يكن مسلماً؛ ذلك لأن

عقيدة الإسلام لا تقبل التجزئة والتقسيم، فمن اعتقد بها كلها، صحت عقيدته وكان مسلماً، ومن آمن ببعضها وكفر ببعضها، عاد الجزء الذي كفر به فنقض الجزء الذي آمن به؛ لأن عقيدة الإسلام بدأت من الإيمان بالله، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بكمال صفاته، وذلك يستلزم تصديقه في ملائكته وكتبه ورسله وأخبار الغيوب التي يخبر بها؛ فمن أنكر شيئاً من ذلك فقد أنكر كمال صفات الله؛ ومن فعل ذلك لم يكن بالله عارفاً، ولم يكن به مؤمناً.

وقد أشار القرآن إلى كفر اليهود إذ آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه. قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

كما لا يقبل هذا الطرف الاعتقادي التنازل عن مرتبة العلم اليقين، والاعتقاد الراسخ، في كل جزء من أجزائه الثابتة بيقين. فمن تردد ببعض ما ثبت فيها بيقين، أو اكتفى بغلبة الظن، لم تصح عقيدته. وهذا المستوى من درجة الاعتقاد، هو ما يسمى عند علماء التوحيد: (بالتصديق).

هل الإيمان يزيد وينقص؟

وهنا يتساءل البعض فيقول: هل درجة الاعتقاد هذه تقبل

الزيادة أو لا؟ ويعبرون عن هذا المعنى بعبارة: (هل يزيد الإيمان وينقص)؟

وللإجابة على هذا التساؤل نحتاج إلى تقديم مقدمة؛ فنقول:

إننا نعلم مثلاً بوجود أشياء كثيرة عن طريق الاستنتاج العقلي؛ ونعتقد بها اعتقاداً راسخاً، ومع ذلك فإننا نجد أنفسنا تزداد اطمئناناً كلما ورد علينا برهان جديد؛ يؤكد لنا نفس ما نعتقد به، ونعلم أن هذا البرهان الجديد لم يفدنا علماً جديداً، ولكن زاد طمأنينتنا بكون ما نعتقد به حقاً لا شبهة فيه، كما أنه زاد في وثوقنا بالأدلة السابقة، التي أفادتنا الاعتقاد بتلك الأشياء.

ثم إذا استطعنا أن نحصل على المشاهد الحسية، وأضفنا دليل المشاهدة إلى دلائل الاستنتاج العقلي، فإننا نرى أنفسنا ونحن نشعر بنهاية الطمأنينة، وبلوغ غاية ما يمكن أن نتساءل عنه، أو نبحث فيه.

ونستطيع أن نقول بعد هذا: إن هذه المراتب التي ترقَّينا فيها لم تفدنا اعتقاداً جديداً، وإنما كبّرت في أنفسنا صورة الاعتقاد السابق.

ولنا أن نمثل العقيدة الجديدة الراسخة في أنفسنا بالمولود الجديد، فالمولود الجديد يكبر جسمه على مرّ الأيام بسبب التغذية، ويصبح قادراً على الحركة، والعمل والانتاج، كما يكبر فكره بالتربية والتعليم. مع أنه لم يزد بكبره عيناً ولا يداً، أو أي عضو من الأعضاء.

ومثل ذلك العقيدة الجديدة الراسخة ـ كعقيدة الإيمان بالله تعالى ـ تولد في قلوبنا تامة الأعضاء والأركان كالوليد الجديد، ثم بمرور الزمن وتوارد الشواهد في حياتنا، وبتتابع التغذية بالأعمال الصالحة، والمراقبة لله تعالى، تنمو هذه العقيدة وتكبر في نفوسنا، حتى تصل بنا إلى مراتب الشهود، بحيث لو كشف الغطاء لم يزد يقيننا، وكلما كبرت عقيدتنا ونمت في نفوسنا، كلما زاد تأثيرها في سلوكنا، وزاد إنتاجها في حياتنا، وزاد إسعادها لنا.

وبالمقابل: إذا حرمناها من التغذية، وغشّينا عليها بالمعصية، تضاءلت حتى تعود كيوم ولدت، عقيدة صحيحة مقبولة، ولكنها غير فعالة ولا منتجة، وقد يأتيها عارض من عوارض الشكوك الوهمية، والأمراض الشهوانية فيميتها.

وبهذا المفهوم وفي حدود هذه القيود التي قدمناها نرى: أن الإيمان يزيد وينقص، تزيده الطاعات، وتنقصه المعاصي. ويشهد لهذا المعنى قول الله تعالى في وصف المؤمنين في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ وقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾.

كما يشهد له قول سيدنا إبراهيم عليه السلام لربه كما جاء في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ

﴿ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

ومعنى ﴿صُرْهُنَّ﴾ صار الشيء يصيره، إذا أماله إليه وكذا إذا قطعه، فمعنى ﴿صرهن﴾: أي أمِلْهُنَّ إليك وقطعهن واخلط لحمهن وريشهن.

فإن إبراهيم عليه السلام زاد قلبه اطمئناناً بسبب المشاهدة الحسية لإحياء الموتى، دون أن يزيد عقيدة جديدة، أو يزيد في نفس العقيدة شيئاً غير الاطمئنان والوضوح والنمو.

٢ ـ وأما الطرف السلوكي فهو نوعان:

أ ـ النوع الأول: ما يرتبط بالإقرار عن الجانب الاعتقادي. وحكمه حكم العقيدة نفسها، لا هوادة فيه، إلا في حالات نادرة يعذر صاحبها بها. كمن عاجله الموت قبل أن يُقِرّ بلسانه، وهو مذعن بقلبه ويريد الإقرار بلسانه، وليس عنده مانع نفسي منه. وكمن أُكره على لفظ الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان. قال تعالى في سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

أما من لم يكن له عذر، ولم يقر بلسانه، فإنه يظل على الكفر ـ وإن عرف في قلبه العقيدة الحقة ـ لأنه لم يمنعه من الإقرار مع علمه بالحق إلا العناد، أو الخوف على بعض منافع دنيوية بزعمه.

ب ـ النوع الثاني: ما يرتبط بفعل الواجبات، وترك المحرمات.

والتقصير أو المخالفة في هذا النوع، مع اعتقاد الوجوب بالنسبة للواجب، والتحريم بالنسبة للمحرم، من غير جحود ولا إنكار، لا يخرج عن الإسلام، ولكن يوقع بالفسوق والعصيان.

وهنا تتفاوت مراتب المسلمين بحسب طاعاتهم ومعاصيهم: فمنهم سابق بالخيرات بإذن الله: وهم الذين يؤدون الواجبات والمستحبات، ويتركون المحرمات والمكروهات. ومنهم مقتصد: وهم الذين يؤدون الواجبات ويتركون المحرمات، ولكن يقتصدون في فعل المستحبات وترك المكروهات. ومنهم ظالم لنفسه: وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ويشهد لهذا التقسيم قول الله تعالى في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

وعن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: (كلهم في الجنة).. وأوضح القرآن الظالمين لأنفسهم من أمة محمد ﷺ بقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والتقسيم الذي جاء في سورة الواقعة هو للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم: فالسابقون: هم المقربون، ثُلّة من الأولين وقليل من الآخرين. وأصحاب الميمنة (اليمين): هم قسما المقتصدين والظالمين لأنفسهم، وهم ثُلّة من الأولين وثلة من الآخرين.

وأصحاب المشأمة (الشمال): هم البقية الباقية الكافرة. ولا يخفى أن كل صنف من هذه الأصناف فيه فئات تتفاوت درجاتهم؛ ويتفاضلون فيما بينهم، على قدر أعمالهم، والمنح الإلٰهية لهم، أو تتنازل دركاتهم بحسب أعمالهم وخذلان الله لهم. ويشهد للتفاضل قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

ويكون الارتقاء في دار النعيم بحسب الدرجة التي نالها من كان من السابقين، أو من أهل اليمين. ويكون تنازل دركات أهل العذاب بحسب جرائمهم وإساءاتهم ومعاصيهم.

٣ ـ وأما طرف الغاية من الاعتقاد والسلوك فهو نوعان أيضاً:

أ ـ النوع الأول: ما يوقع بالكفر لأنه يؤثر على العقيدة. كقصد عبادة غير الله مع عبادة الله، وهذا شرك.

ب ـ النوع الثاني: ما يحبط العمل ولا يكسر قناة العقيدة. كأن يقصد بفعل عبادة الله تعالى مثلاً غير وجه الله من الأغراض الدنيوية؛ التي يمكن أن تتحقق للفرد عن هذا الطريق، وهذا ما يسمى: بالرياء.

ويجمل بنا ـ بعد أن أوضحنا أطراف الإسلام الثلاثة ـ أن نشبه الإسلام بالشجرة؛ فاسم الشجرة يطلق على جميع أجزائها: من جذورها، إلى ساقها، إلى فروعها الكبرى فالصغرى، ثم إلى أوراقها وإلى ثمارها وإلى الماء الساري فيها.

1 ـ فالجذور المتغلغلة في الأرض والواقعة تحت سطحها: تشبه الإيمان الذي يتغلغل في القلب، دون أن نستطيع الاطلاع عليه، وكشفه بيقين.

2 ـ وما يظهر من الشجرة على سطح الأرض: يشبه الأعمال التي يعملها المسلم، بوصفها أثراً من آثار الإيمان المتغلغل في قلبه.

3 ـ والساق المتصل بالجذور الملاصق لسطح الأرض: يشبه إعلان الشهادتين نظراً لاعتماد سائر ما يظهر من الشجرة عليه.

4 ـ والفروع الكبرى في الشجرة: تشبه بقية أركان الإسلام الأساسية، وواجباته الحتمية.

5 ـ والفروع الصغيرة المتشعبة وما حولها من أوراق: تشبه سائر أحكام الإسلام، وتعاليمه وأخلاقه، وآدابه ورقائقه.

6 ـ والماء الساري في جميع أجزاء الشجرة من جذورها حتى فروعها الكبرى فالصغرى فالأوراق: يشبه النية التي يلاحظها المسلم دائماً، والسارية في كل عمل يعمله، سواء كان من الأعمال القلبية، أو من الأعمال الظاهرة.

7 ـ والأزهار والثمار والأكلُ التي تؤتيها الشجرة كل حين بإذن

ربها: تشبه الغايات التي سيحصل عليها المسلم لا محالة، وهي التي يهدف إليها في عقيدته وسلوكه ونيته في أعماله.

8 ـ وكل شجرة لا جذور لها، لا حقيقة لحياتها، ولا ثمرة لها، وما هي إلّا صورة من الصور، ورسم من الرسوم. وكل عرق وفرع لا يسري فيه ماء الشجرة، لا يمكن أن يكون له نضرة ولا ثمر، وكذلك شجرة الإسلام في ذات المسلم.

9 ـ قد تتعرض الشجرة للأعاصير والرياح، ولكن الشجرة الراسخة لا تزيدها الأعاصير والرياح إلا نمواً ورسوخاً؛ وكذلك شجرة الإسلام الراسخ في القلب، لا تزيدها الرياح الهوج إلّا رسوخاً وإيماناً.

أما الأشجار الضعيفة في جذورها، المقلقلة في أصولها، الذابلة في فروعها، فأحر بها أن تحملها الرياح والأعاصير، وتلقي بها في مكان سحيق.

10 ـ إن جذور الشجرة تنقل الغذاء من الأرض للشجرة، فتنمو هي وتنمّي شجرتها، وفروع الشجرة وأوراقها تمتص الغذاء من الشمس والهواء، فتعود به حتى الجذور فتغذيها وتنميها.

وكذلك شجرة الإسلام: فإن جذورها التي تمثل عقيدة المسلم تغذي سلوكه وتقوّمه، على وفق المنهج المرسوم في الإسلام، ومثل ذلك الأعمال الصالحة الظاهرة، والانخراط في سلك الصالحين، يمنح العقيدة طمأنينة وغذاءً، ويكسبها قوة ونماءً.

وبعد أن عرفنا الإسلام بأطرافه الثلاثة التي شرحناها آنفاً، نتساءل فنقول:

هل لفظتا الإسلام والإيمان خاصتان بديننا الذي هو خاتمة الرسالات السماوية أم لا؟

بالرجوع إلى النصوص القرآنية والنبوية، نلاحظ أن الشرائع السماوية كلَّها بحسب أصولها متفقة في جوهرها، وفي دعوتها إلى الخضوع لله، والاستسلام لأحكامه، وتشريعاته، ويصح فيها جميعاً أن نسميها (بالإسلام)، وأن نسمي عقائدها (بالإيمان) وفق اسم ديننا الذي هو خاتمة الرسالات السماوية، والناسخ للعمل بالشرائع السابقة.

وإنما ذلك بحسب أصولها المنزلة على الرسل، لا بحسب تحريفاتها وتغييراتها وأوضاعها بعد بعثة محمد صلوات الله عليه؛ وإن أخذت هذه الشرائع السابقة ـ بحسب اصطلاح الأتباع ـ أسماء أخرى كاليهودية والنصرانية.

ويشهد لهذا المعنى، ما نراه في القرآن الكريم من التصريح بأن الرسل السابقين كانوا يدعون أتباعهم إلى الإسلام؛ ويأمرونهم بالإيمان، فمن ذلك:

1 ـ قوله تعالى: حكاية عن قول موسى لقومه ـ في سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

2 ـ وقوله تعالى: عن الحواريين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ـ في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

3 ـ كتب سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ كتاباً، وأرسله مع

الهدهد، وفيه كما قال الله تعالى في سورة النمل: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ولما وصلت ملكة سبأ إلى سليمان ودخلت الصَّرْح قالت كما في سورة النمل: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

4 ـ يوسف عليه السلام قال ـ كما حكى الله عنه ـ في سورة يوسف: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

5 ـ إبراهيم عليه السلام ـ وهو الأب الأعلى لشطرين من سلالة الأنبياء. الشطر الذي تسلسل من ولده إسحق في بني إسرائيل؛ والشطر الذي كمن في العرب من ولده إسماعيل، حتى ظهر في محمد خاتم الأنبياء عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ قال الله في اسم ديانته في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾. وقال تعالى أيضاً ـ ينسب الملة الحنيفية له، كما ينسب له تسميتنا بالمسلمين ـ في سورة الحج: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

المعنى اللغوي للفظتي الإسلام والإيمان:

الإسلام في اللغة: الاستسلام والانقياد، وهو مصدر أسلمَ

يُسلِم فهو مُسلِم. وبين هذا المعنى، وبين المعنى الشرعي الذي سبق شرحه مناسبة ظاهرة؛ لأن الإسلام في الشرع ـ كما قدمنا ـ: هو الاستسلام والانقياد لله تعالى ظاهراً وباطناً.

الإيمان: هو مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن.

قال في لسان العرب: اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق.

وبين هذا المعنى اللغوي، وبين المعنى الشرعي الذي سبق إيضاحه لكلمة الإيمان مناسبة ظاهرة؛ لأن الإيمان في الشرع ـ كما أوضحنا ـ: هو التصديق في القلب بكلّ ما جاء به رسول الله ﷺ

تلخيص عام:

ونستطيع أن نلخص هذه البحوث التي عالجناها بإيضاح، تحت عنوان (الإسلام والإيمان) بما يلي:

١ ـ **الإسلام**: اسم لهذه الديانة الربانية في طرفها الاعتقادي، وطرفها السلوكي، وطرفها الذي يحدد غاية المسلم، فهو اسم عام.

٢ ـ **الإيمان**: يطلق على الجانب الاعتقادي من أطراف الإسلام؛ ولذلك نرى النصوص القرآنية حينما تذكر الإيمان تعلّقه بالقلب؛ وتضيفه إلى ما يأخذ الصبغة العلمية الاعتقادية. كقول الله تعالى في سورة المجادلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

وكقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ

أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ وقد يطلق الإيمان على خصال الإسلام كلها، باعتبارها من آثاره ومظاهره في السلوك.

3 ـ لا يعتبر الإسلام إسلاماً صحيحاً عند الله ما لم يكن أثراً من آثار الإيمان القلبي؛ وما لم يكن مصحوباً بالنية التي تصحح العمل، والنيةُ الصحيحة من جواهر الإيمان.

4 ـ قد توجد صورة أعمال تحاكي أفعال المسلمين، ولكن لا تكون نابعة عن إيمان صحيح، فلا تعتبر هذه الأعمال في الحقيقة إسلاماً، وقد ينخدع الناظر إليها فيسميها إسلاماً، بمقتضى التشاكل بينها وبين الإسلام. على أننا في الأحكام الإسلامية إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، فمن أعلن الإسلام من غير إيمان فهو منافق.

5 ـ الإيمان الصادق الراسخ في القلب لا بد وأن يوجِّه السلوك ويحرك العواطف؛ فيظهر له آثار عملية إذا سنحت الفرصة لذلك.

6 ـ قد يوجد إيمان صحيح ولكن لا تسنح الفرصة للقيام بأي عمل ظاهري إسلامي؛ أو يخشى صاحبه من إظهاره على حياته، فيضعف عن إظهاره، فيكون إيماناً مقبولاً عند الله، لأن صاحبه مذعن به داخلياً، ولم يمنعه من إظهاره عناد ولا مخالفة.

7 ـ قد يوجد علم بحقيقة المعتقدات الإسلامية، ولكن يصاحب ذلك إنكار، وصاحب هذا كافر، بل هو أشد من الكافر الجاهل، لأنه عرف وانحرف.

8 ـ المطلوب في العقيدة لا يقبل النقصان، ومتى نقص

حصل الكفر، والعقيدة كُلٌ لا يقبل التجزئة، فمن أنكر بعضها كمن أنكرها كلها يعتبر كافراً.

9 ـ الإيمان يزيد نمواً وكبراً حتى يصل إلى مرتبة الشهود بالطاعة والمراقبة، وينقص ذبولاً ـ هزالاً حتى يعود إلى مرتبة البدء بالمعصية والغفلة. ولكنه لا يزيد إذا زاد جزءاً لم يكن من قبل، ولا ينقص إذا نقص جزءاً مطلوباً في الإيمان، فإذا نقص جزءاً مطلوباً بطل الإيمان أصلاً، كما هو موضح في الفقرة السابقة.

10 ـ مَثَلُ الإيمان والإسلام كمثل الشجرة وجذورها.

فالإسلام كلٌ، والإيمان جزء منه، ولكن هذا الجزء هو الأصل في هذا الكل، ولكل منهما أثر في الآخر.

11 ـ الإسلام اسم عام للشرائع السماوية كلها بحسب أصولها الصحيحة.

12 ـ ينقسم المسلمون إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ سابقون في الخيرات: وهم المُقَرَّبون.

ب ـ ومُقْتَصِدون.

ج ـ وظالمون لأنفسهم.